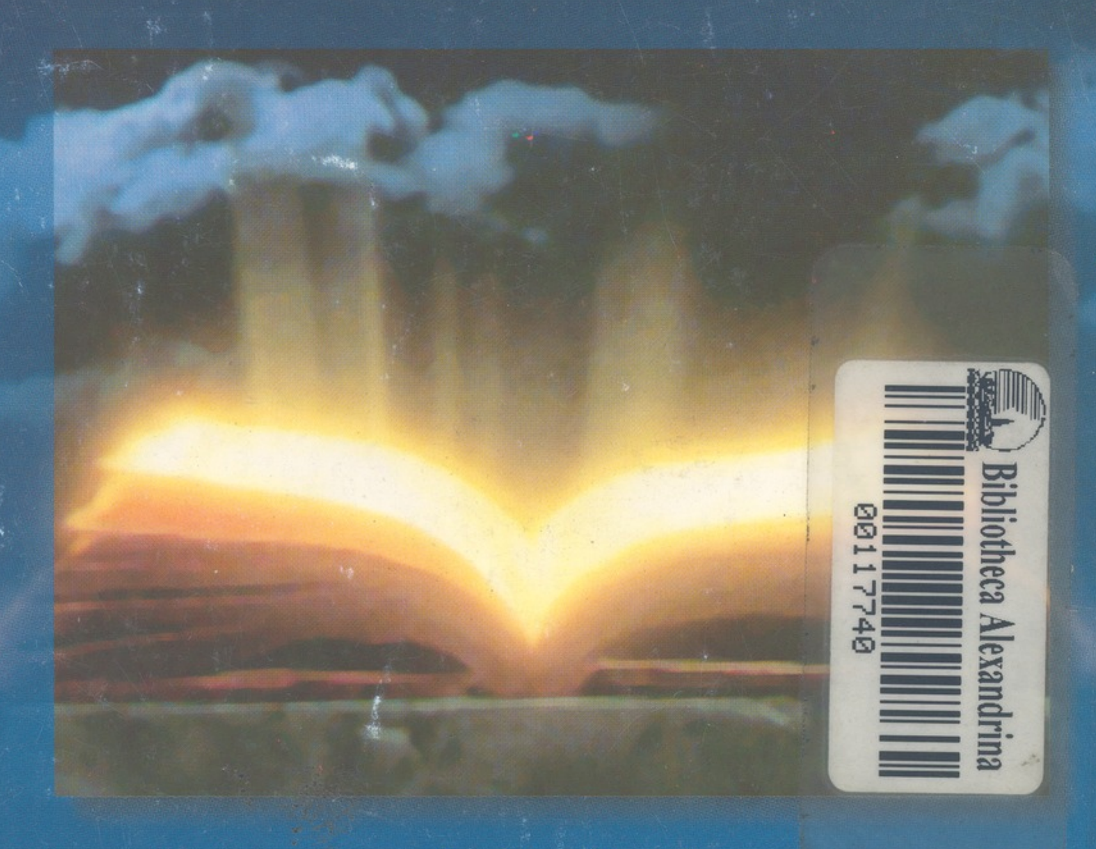
عبد الرحمن بدوى

الدفاع عن القرآن ضد منتقديه



مدبولى الصغير

الدفاع عن القرآن ضـــد منتقديـه

١

الدفاع عن القرآن ضد منتقديه

الناشر: مكتبة مدبولى الصغير
٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥
رقم الإيداع : ٩٨/٣١١٣
الترقيم الدولى : 977 - 286 - 052 - x

الطبعة الأولى :

تصميم الغلاف : عاطف منصور

الصف والإخراج الفنى : كريم كمبيوتر

عبـــدالرحـــمـــن بـــــدوى

الدفاع عن القرآن ضـــد منتقديـــه



الناشـــر: مدبولـــى الصغيـــر

مقدمـــــة

كان القرآن باعتباره الأساس الجوهرى للإسلام منذ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) هدفاً رئيسياً لهجوم كل من كتب ضده سواء من الغرب أو من الشرق. وقد وجه هذا الهجوم فى البداية على النسق العام للقرآن ككل يوحنا الدمشقى J. Damascene (٦٥٠ - ٧٥٠م تقريباً) فى كتاب بعنوان: «الطوائف» De Haeresibus. (Patr. Gaeca, Txiy, Col. 764-774). أو تلك التى نشرها أثيميوس زيجابينوس Euthymius Zigabenos (١٣٣١ - ١٣٥٩م) فى مؤلفه: Panoplia Domgatica, Patr. Gr., Lxxx, Col. 1331-1359.

لكن أول هجوم مفصل على القرآن ورد فى كتاب نيكيتاس البيزنطى تحت عنوان: «نقض الأكاذيب الموجودة فى كتاب العرب المحمديين»: Confutatio Falsi Libris Quem Scriptis Mohamades Arabs, (Patr. Gr., t. CV, Col. 669-842.

والحقيقة أنه لم تصلنا معلومات وافية عن هذا الأخير سوى أنه كان مشهوراً فى النصف الثانى من القرن التاسع، وأنه كان من أعنف المهاجمين للإسلام وكذلك للكنيسة الأرثوذوكسية الأرمينية التى انتقدها فى كتاب «دحض الكنيسة الأرمينية» (Confutation de la lettre du Roi D'Armenie)، وأيضاً للكنيسة الكاثوليكية الرومانية التى تعرض لها بالهجوم فى كتاب آخر بعنوان (Capita Syllogistica XXIV).

ويسجل التاريخ أن أوسع حملة شنت على القرآن والإسلام أثارها المستشرق جان كنتاكوزين إمبراطور بيزنطة (ولد حوالى ١٢٩٢، وتوفى حوالى ١٣٨٠م)، وقد جاء هجومه

مفصلاً فى كتابين: الكتاب الأول بعنوان: Contra Sectam Apologie IV (Patr, Gr., t. 154, Col. 371-583)، والثانى بعنوان: Contra Mahometan Oration Quator (Patr. Gr., t 154, Col. 583-692).

ولن نتوقف فى عرضنا عند المؤلفات الناقدة للقرآن والتى كتبت باللغة السريانية. (انظر رويز دوفال Rubes Duval، الأدب السريانى La Litterature Syriaque، باريس ١٨٩٩، ص ٣٧٨). أو كتبت باللغة الأرمينية والعربية، (انظر جراف: الأدب العربى المسيحى (Cf. Graf: Die Christlich. Arabische Litteratur Bis Zu Franschen Zeit, 1905).

وبسقوط القسطنطينية على يد المسلمين الأتراك عام ١٤٥٣م توقف كل الجدل البيزنطى ضد الإسلام، وانتقل مركز ثقل الهجوم إلى أوروبا المسيحية التى رفعت اللواء. فبدأ الكاردينال نيكولا دى كوزا Nicholas Di Cusa (١٤٠١ - ١٤٦٤م) المسيرة الجديدة للهجوم بدعوة من البابا بيوس الثانى Pie II الذى دعاه إلى تأليف كتاب يفند فيه دين الإسلام. فنشر نيكولا دى كوزا كتاباً يتهجم فيه على الإسلام بعنوان «غربلة القرآن»: (Cribiatio Al Chorani Oeuvres, Ed De Bâle, pp 879-932).

نشر هذا الكتاب فى مدينة بال Bâle بسويسرا عام ١٥٤٣م فى ثلاثة أجزاء، عرض المؤلف فى الجزء الأول إدعاءً مفاده إثبات حقيقة الإنجيل استناداً على القرآن.

وقدم فى الجزء الثانى شرحاً تفصيلياً عن المذهب الكاثوليكى.

وختم عمله فى الجزء الثالث ببيان ما وصفه بتناقضات القرآن. بعد هذا التاريخ توالى جدل الجيزويت والدومينيكان وهجومهم على القرآن.

وكتب دينيس الأمين «حول الخداع المحمدى»، (كولون، ١٥٣٣م): Denys Le Chartreux (m. en 1471): Contra Perfidiam Mahometi, Cologne, 1533).

● ألفونس سبنا (ت١٤٩١م): Alphone Spina (M. en 1491): Fortalitium Fidei, Lym, 1525).

● چان دی تیـريكريمــاتا (ت ١٤٦٨م): Jean De Turrecremata, o.p. (M. en 1468): Tractatus Contra Principales Errores Perfidi Mahometis, Pars. Sans Date Rome 1606).

● لويس فـيـيف (ت ١٥٤٠م): Luis Vives (m. en 1540): De Veritate Fidei Christianae Contra Mahomedanos, Bâle, 1543).

● ميشيل نان (١٦٣٣ - ١٦٨٣م): Michel Nan, SJ (1633-1683): Ecclesiae Romanen, Gracae Vera Effigies et Consensus, Et Religio Christiana Contra Accoranum ex Alcorano Defensa Et Probata, Paris. 1680.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن معظم هذه الكتب وجهت نقدها للإسلام عامة ولم تتطرق إلا عرضاً للقرآن، ولم تظهر أول دراسة مفصلة ضد القرآن إلا فى العقد الأخير من القرن السابع عشر، فى الدراسة التى قام بها لودفيكو مراشى (مرعشى) Ludovico Maracci (١٦١٢ - ١٧٠٠م) فى كتاب من جزئين بعنوان: Al Corani Universus (Padova, 1698). وحمل الجزء الأول عنوان: Prodomus Ad Refutationem Alcorani. وطبع فى أربعة أجزاء منفصلة عام ١٦٩١، حيث يتطرق مرعشى، الذى كان يجيد العربية والسريانية والعبرية، لحياة محمد من خلال المصادر العربية. أما فى الجزء الثانى يقدم مرعشى النص العربى للقرآن مع ترجمة باللغة اللاتينية زودها بالتعليق والشرح للمقاطع الغامضة خاتماً كل هذا بالتفنيد. وقد كتب المستشرق كارلوا الفونسوا نللينو C.A. Nallino بحثاً حول «المصادر المخطوطة فى عمل لودفيكو مرعشى حول القرآن». (Rendiconti R. Acc. d. Lincei, Cl. Sc. Mor, 6eme Serie, 7, 1932, pp 303-349).

ويمكن اعتبار عمل مرعشى أساس ونقطة انطلاق الدراسة الجادة فى أوروبا عن القرآن. لكن يجب القول كذلك أن هذا العمل غير دقيق وملىء بالأخطاء الفادحة والحجج الضعيفة التى تفتقر إلى الدقة العلمية. ونفس هذه الأخطاء سنجدها بدرجات متفاوتة فى كل البحوث والدراسات حول القرآن التى قام بها المستشرقون خلال القرنين التاليين لظهور كتاب مرعشى. كما سنثبت ذلك فى كتابنا هذا.

مامن شك فى أنه ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر حاول المستشرقون توخى الموضوعية والدقة فى أطروحاتهم وكذلك الاهتمام الشديد بالتدقيق الموضوعى للمنهج اللغوى Philologie.

لكن الغريب فى الأمر أن أدوات فهم اللغة الحديثة التى توفرت للمستشرقين منذ منتصف القرن الماضى ـ خاصة بفضل سهولة الوصول إلى المخطوطات ـ قد أعطت لبعضهم المزيد من الجسارة فى اختلاق الفرضيات والنظريات الزائفة الوهمية ليستخلصوا منها مايشاءون من نتائج تجانب الصواب.

لهذا السبب يأخذ الكتاب الذى نحن بصدده على عاتقه فضح وكشف هذه الجراءة الجهولة. وليس فى نيتنا، مع هذا، حل كل المعضلات القرآنية المثارة ـ بعضها يظل ـ وسيظل ربما دائماً ـ موضع بحث ودراسة أعمق وأفضل تناولاً من عدة زوايا.

ونبدأ بتسجيل بعض الملاحظات العامة:

١ ـ إن معرفة هؤلاء المستشرقين للغة العربية من الناحية الأدبية أو الفنية يشوبها الضعف. ويمكن القول أن هذه الملاحظة تخصهم جميعاً تقريباً.

٢ ـ إن معلوماتهم جميعاً المستقاة من مصادر عربية جزئية ناقصة وضحلة وغير كافية، وهم يرمون بأنفسهم فى مغامرة طرح فرضيات خطيرة وخاطئة يعتقدون أنهم أول من توصل إليها، دون تكليف أنفسهم عناء التقصى لدى تلك المصادر عن نفس المعضلات التى يثيرونها. إذ تطرق الكُتّاب المسلمون فى حقيقة الأمر لهذه الفرضيات واعترضوا عليها.

٣ ـ إن ما يحرك بعض المستشرقين دافع الضغينة والحقد على الإسلام مما يفقدهم الموضوعية ويعمى بصيرتهم بطريقة أو بأخرى. وهذا ينطبق خاصة على: هيرتشفيلد H. Hirschfeld ـ هوروفيتز H. Horovitz ـ سبير H. Speyer.

٤ ـ لقد ذهب بعضهم من السطحيين إلى الإعلان بأعلى صوته أن فى القرآن انتحال وتقليد وسرقة، معتمدين على تشابه لا أساس له. وهذا ماقام به مستشرقون مثل:

جوتسيهر Golziher ونودلكه Nödelke وشوالى Schwally ومرجوليوث -D.S. Margoli outy. ونتحفظ نوعاً ما فيما يتعلق بنودلكه Theodor Nödelke الذى يتبرأ نوعاً ما من مؤلفه: (Geschichte de Korans (Göttingen, 1830، عندما رفض إعادة طبعه تاركاً المستشرق شوالى Schwally يقوم بهذه المهمة، فطبع الكتاب ثانية واصبح يُعرف بكتاب نودلكه - شولى: Nödelke-Schwally: Geschichte des Korans.

٥ - لقد كان بعضاً من هؤلاء المستشرقين مدفوعاً بالتبشير والتعصب المتحفز، مثلما هو الأمر بالنسبة للمستشرق وليم موير William Muir وس. م زفيمر S.M. Zwemer.

ولن نعالج بطبيعة الحال فى هذا الكتاب كل القضايا التى أثارها المستشرقون بصدد القرآن. فلم نتطرق إلا لتلك القضايا التى بدت لنا أكثر أهمية، كما حصرنا بحثنا فى الفترة مابين منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العشرين.

ومع أن موضوعنا يتسم بطابع جدلى، إلا أننا اتبعنا منهج علم اللغة الصارم متوخين أكبر قدر من الموضوعية، يحدونا فى هذا هدف واحد، الا وهو فضح بعض أشباه العلماء الذين خادعوا الكثيرين فى أوروبا وغيرها..

لكن القرآن خرج منتصراً على كل هذه الهجمات.

عبدالرحمن بدوى

باريس، ١٩٨٨

الفصل الأول

ماهــو مفهــوم لفــظ «أمــيّ» المتعلق بالنبى محمد (ﷺ)؟

لعل أكثر الكلمات إثارة للجدل عند محاولة تفسير الألفاظ القرآنية هى لفظة «أمىّ»، خاصة عندما يتعلق الأمر بالنبى محمد (ﷺ).

إذ تنطبق هذه الصفة على عدة حالات كما جاء فى القرآن:

(أ) وصف النبى محمد (ﷺ) كما جاء فى الآيات:

١ ـ **﴿فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾** (سورة الأعراف ـ الآية: ١٥٦ ـ ١٥٧).

٢ ـ **﴿فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾** (سورة الأعراف ـ الآية: ١٥٨).

(ب) وإما فى وصف الأمم كما جاء فى الآيات:

١ ـ **﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾** (سورة الجمعة ـ الآية: ٢).

٢ ـ **﴿فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى وقل للذين أتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾** (سورة آل عمران ـ الآية: ١٩).

٣ ـ **﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾** (سورة آل عمران ـ الآية ٧٥).

٤ ـ **﴿ومنهم أميّون لايعلمون الكتاب إلا أمانىَ وإن هم إلا يظنون﴾** (سورة البقرة ـ الآية: ٧٨).

● لنبدأ ونتفحص الحالة الأولى وهى عندما يطلق النعت «أمىّ» على النبى محمد (ﷺ):

(أ) التفسير الذى سيؤخذ به فى أغلب الأحيان من طرف مفسرى القرآن وكذا اللغويين هو ذلك الذى ورد فى لسان العرب ومفاده أن الرسول محمد (ﷺ) وصف **بالأمىّ** لأن الأمة العربية لم تكن تكتب أو تقرأ النصوص. وقد بعث به الله رسولاً رغم أنه لايجيد القراءة والكتابة. وكانت هذه الصفة هى إحدى معجزاته لأنه رتل القرآن على أمته تباعاً حسبما أنزل دون تغيير ودون تشويه كلماته. بينما اعتاد خطباء العرب تعديل أقوالهم التى ارتجلوها سلفاً سواء بالزيادة أو النقصان. وقد حكم الله أن يحفظ نبيه كتابه كما أنزل عليه. واصطفاه من بين الذين أرسل إليهم بهذه المعجزة. فأنزل الله الآية **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾** (سورة العنكبوت ـ الآية ٤٨).

هؤلاء «المبطلون» الذين لايؤمنون كانوا سيؤكدون أنه (محمد) قد وجد هذه القصص المكتوبة وحفظها من الكتب.

نستنتج مما سبق:

١ ـ أن النعت «أمىّ» تعنى: الذى لايكتب ولا يقرأ.

٢ ـ أنه مشتق من كلمة أمة، بمعنى أمة الكتاب من حيث أن هذه الأمة كانت فى مجملها أميّة. ويؤكد لسان العرب هذه الفكرة مورداً أنه يقال عن العرب أميين لأن الكتابة تكاد تكون منعدمة بينهم أو هى منعدمة تماماً.

ويورد كذلك حديثاً للنبى (ﷺ) يقول فيه: «**إنما بعثت لأمة أميّة**».

٣ ـ ويورد لسان العرب اشتقاقاً آخر لكلمة «**أميّ**»، «**أميون**» ينطبق أكثر على الأمم أى على الحالة الثانية أعلاه. وينسب هذا الاشتقاق إلى فقيه اللغة الكبير فى البصرة أبو إسحاق الزجاج (المتوفى فى ٣ جمادى الثانى ٣١١ هـ/ ٢٥ـ٩ـ٩٢٤ م). إذ يقول الزجاج إن **الأمى** هو الذى ولد على خليقة الأم، أى على الفطرة، أى كما ولدته أمه لم يتعلم الكتابة، لأن الكتابة صفة مكتسبة.

ونصل طبقاً لهذا الاشتقاق إلى أن نعت «**أمى**» يأتى من أم. فنحن إذن أمام صياغتين لصفة **أمى**:

ـ **أمى** مصدرها من أمة.

ـ **أمى** مصدرها من أم.

ويمكن تبرير الصياغتين من حيث القواعد دون مشاكل تذكر. لكن الأمر يختلف عندما يتعلق الأمر بالبحث فى المعنى. إذ تتضارب وجهات النظر حسبما أخذت الصياغة الأولى أو الثانية. وإذا كان لفظ **أمى** يحمل فى الحالة الثانية مفهوم الذى لايقرأ ولايكتب فإنه فى الحالة الأولى لا يؤدى أبداً إلى نفس المعنى.

لهذا السبب يجد الذين يفسرون كلمة «**أميّ**» المطبقة على النبى(ﷺ) من ناحية أنه ينتمى إلى «أمة» ـ وهى فى هذا الصدد الأمة العربية ـ فى وضعية حرجة لأنه من الخطأ أن نجزم ونقول إن الكتابة كانت نادرة أو غير موجودة تماماً لدى العرب، أضف إلى ذلك أن أمما كثيرة كانت تعيش نفس الحالة.

لماذا إذن حصر هذا النعت على الأمة العربية لتختص به وحدها دون سواها، خاصة أنه يمكن الاعتراض على هذا استناداً إلى الآيات التى استدللنا بها فى الحالة التى ورد فيها لفظ «**أميّ**» و«**اميون**» للدلالة على الأمم؛ حيث أن الأمر يتعلق بأمم كثيرة متعارضة أو موازية مع أمتى التوراة (اليهود) والإنجيل (المسيحيين) أى **أهل الكتاب** بصفة عامة.

أولاً ـ آراء المستشرقين:

لنناقش الآن آراء المستشرقين الأوروبيين حول معنى «أميّ» و«أميون»..

(أ) لقد كان سبرنجر A. Sprenger أول من تناول هذه المسألة فى كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان: «حياة وعقيدة محمد» (برلين ١٨٦١): Das Leben Und Die Lehre Des Mohamed (Berlin 1861).

١ ـ يقول فى الجزء الأول، ص ٣٠١:

«كانت الشعوب قبل ظهور محمد منقسمة إلى أهل الكتاب **والأميين** (الوثنيين)، وتمثل أهل الكتاب فى اليهود والمسيحيين وأهل سبأ، وهذه الشعوب والقبائل كان بين أيديها الكتاب المقدس، بينما لم يكن لدى الوثنيين أى تنزيل.

٢ ـ ويذكر فى الجزء الثانى، ص ٢٢٤:

«إن «**أميّ**» يعنى جنتيليس(*) Gentilis التى تساوى وثنى.

٣ ـ الجزء الثالث، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢:

«يدعى هنا أن «**الأميّ**» هو الرجل الذى يستطيع فعلاً القراءة دون الكتابة».

ويعتمد أصحاب هذا الرأى على فهم خاطىء للآيتين ٧٨، ٧٩ من سورة البقرة **﴿ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإن هم إلا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ويقولون هذا من عند الله﴾**؛ إذ يقول ابن إسحاق إن كلمة «أمانىّ» التى وردت عدة مرات فى القرآن تعنى القرّاء.

ويكون تفسير هذه الآية وفقاً لهذا الشرح كالآتى: هناك من بينهم **أميّون** لايعرفون الكتابة لكنهم يستطيعون القراءة.

كما نرى فإن شرح هذا الجزء يعتمد على تفسير كلمة «أمانىّ» والتى مفردها أمة.

(*) وتعنى بمعناها اللاتينى: الشعوب الأخرى غير اليهودية.

ويعطى الفراء (المتوفى عام ٢٠٧) الذى نكره البغوى تفسيراً يقترب كثيراً مع تفسيرى، إذ يشرح كلمة «امانىّ» قائلاً إنها مرادف لـ«أحاديث مفتعلة». بينما يذهب أبو عبيدة إلى أبعد من ذلك مفسراً كلمة «أمانىّ» بأنها «أمر محفوظ عن ظهر قلب يلقى دون اللجوء إلى كتاب». وفى مقام آخر يذكر الفراء أن **الأميون** هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب».

علينا أن نتوقف عند ادعاءات سبرنجر لتقديم الملاحظات التالية:

١ ـ أنه لايستند فى ادعائه الأول على أية وثيقة تثبت كلامه. فإن وجد نص واحد يعود تاريخه إلى ماقبل الإسلام ينص على التفرقة بين أهل الكتاب **والأميين** (الوثنيين) لما طرحت هذه المشكلة. وبالتالى فإن سبرنجر أوقع نفسه فى حلقة مفرغة.

٢ ـ القول بأن «**أمىّ**» تحمل معنى وثنى Gentilis ماهو إلا ادعاء سيتردد لدى كل من فنسك A. Wensinck وهوروفيتز Horovitz وبلاشير Blachere، ورودى باريت Rudi Paret وغيرهم.

٣ ـ يتناول الجزء الثالث آراء الذين يفسرون «**أمىّ**» بمعنى الذى لايعرف الكتابة لكنه يجيد القراءة، ونحن نقول أن هذا الرأى يعود للإمام الشيعى جعفر الصادق. (انظر فى إدوارد وليم لين: معجم عربى إنجليزى، لندن وأدنبرة ١٨٦٣ ـ ١٨٩٣). Edward William Lane: An Arabic-English Lexicon, C.V., London and Edinburg 1863-1893.

(ب) لننتقل بعد هذا للمستشرق فنسنك A.J. Wensink وهورفيتز Horovitz:

١ ـ يؤكد فنسنك Wensink فى مقال صدر فى مجلة Acta Orientalia (2:121) أن لفظ «**أمىّ**» يطلق على صاحبها من غير «أهل الكتاب». وهذه نفس النتيجة التى توصل إليها سبرنجر منذ خمسون سنة من قبله وهى مشتقة من كلمة أمة التى يعنى أنهم العرب. لكن فنسنك يضيف أن كلمة «**أمىّ**» مشتقة من كلمة أمة بمعنى الشعب الوثنى Ethnicos التى تطابقها بالعبرية كلمة جوا Goi. ونراه يتناول نفس الرأى فى كتابه «العقيدة الإسلامية» The Islamic Cread (Gambridge, 1532. p6)، قد انفرد عن سابقيه حين وازى بين اللفظ العربى «أمة» والكلمة العبرية Goi.

لكننا نعلم أن كلمة «جوا» قد وردت فى التوراة (التكوين: إصحاح ١٤:١) فى عبارة «تدعال ملك جوييم». وتدعال هو أحد الملوك الأربعة الذين حاربوا الملك برشاع Penrapolis فى هضبة الأردن. ومن الممكن كذلك أن يكون تدعال هو نفسه الملك الحيثى المشهور Tud-halias. أما معنى كلمة جوييم فمشكوك فيه، حيث أطلق على الشعوب التى كانت تكوّن الإمبراطورية الحيثية، كما أطلق فى نفس الوقت على جوتيم Gutim إحدى المناطق فى أعالى الزاب.

وعند تفحصنا لكتاب يشوع (إصحاح ١٢: ٢٣) نجد أن أحد الملوك الكنعانيين الذين هزمهم يشوع اسمه ملك جوييم الجلجال. ونفس الاسم يرد فى الرواية Confraternell فى عبارة «الملك الغريب جلجل» "Le Roi Étrawge de Galgal".

(Encyclopedic Dictionary of the Bible, s.v.: Goyyim, Turnhout Brepels, 1863, col 896 - 7).

لكن كلمة جوييم تعنى بصفة عامة أمم فى اللغة العبرية. وقد تكون ترجمة للكلمة الأكادية عومان (انظر: الموسوعة اليهودية). Encyclopedis Jubaica, s.v. Goiim, T7, col 683.

ويبدو جلياً إذن أن لفظ جوييم لم يكن منتشراً ومحدداً لدى اليهود بالدرجة التى تجعله معروفاً فى الجزيرة العربية قبل الإسلام. ولهذا فإن أقل مايمكن قوله عن طرح فنسنك هو أنه غير دقيق إن لم يكن خاطئاً فى مجمله.

٢ ـ لهذا بحث المستشرق هوروفيتز J. Horovitz عن مرادف آخر لكلمة «أمىّ» فى اللغة العبرية. فتناول هذه المسألة فى اثنين من كتبه هما:

● «أسماء الأعلام اليهودية ومشتقاتها فى القرآن» Jewisch Proper Names and Derivatives in the Koran (Hebrew Union College Annual, Vol. 11, Ohio 1925. Offset Impression, Hildesheim).

● «مباحث قرانية» Untersuchung Koranische (Berlin und Leipzig 1926, s. 51-53).

ويدعى هوروفيتز وهو عالم مغرض متحيز سيىء النية تجاه الإسلام، أن كلمة «أمىّ» معناها وثنى Païen وأنها مرادف للعبارة العبرية «أمة هاعولام» أى شعوب العالم التى يقابلها على الناحية الأخرى شعب إسرائيل.

من السهل علينا دحض هذا الادعاء الخاطىء. إذ بناءً على مايقوله هوروفيتز نصل إلى أن لكلمة «أمىّ» معنى فيه نوع من الاحتقار. حيث أن مفهوم «شعوب العالم» لدى اليهود ينطوى على فكرة أن هذه الشعوب جاهلة وكافرة وضالة مقارنة مع الشعب اليهودى.

ولايمكن أبداً أن يكون النبى محمد (ﷺ) قد قصد هذا المعنى حين وصف نفسه **بالأمىّ**. خاصة أنه أكد هذه الصفة أمام اليهود وهو يجادلهم. فمن المستحيل إذن أن يكون قد وصف نفسه **بالأمىّ** بمعنى جوا Goi أو جنتيليس Gentilis.

(جـ) وهذا ماجعل مستشرقاً مثل فرانز بهل Frants Buhl يقول محقاً: «من الغريب أن يكون محمد قد استعار من اليهود لفظاً يحمل على السنتهم معانى الاحتقار» (حياة محمد .S. 131, N. 17. Trad. Allemande Par H.H) (Schaeder, Heidelberg g. Aufl. 1955. ويستطرد بهل قائلاً إن لفظ «أمىّ» مشتق من كلمة أمة التى يعادلها باليونانية كلمة لايكوس Laïkos أى الذى ليست له دراية بأمور الدين.

ويضيف: فكلمة «أمىّ» تعنى كما يؤكده بعض العلماء المسلمين أن محمداً لم يكن يقرأ ويكتب.. إذ بكونه تاجراً مكياً كان يجيد بدون شك القراءة والكتابة. لكنه فى المقابل لم يكن يعلم شيئاً عن كتب اليهود والمسيحيين المقدسة. هذا هو الواقع الذى أظهره القرآن عدة مرات. كما يظهر من خلال سرد محمد لروايات الكتاب المقدس أخطاء لم يكن ليقع فيها لو كان على اطلاع بهذا التنزيل». (نفس المرجع).

ويصل بهل إلى أن محمداً كان يجيد القراءة والكتابة لكنه لم يقرأ الكتاب المقدس الذى لم يطلع عليه إلا من خلال العلماء الذين كانوا يدرسونه.

لنفترض أن هذا الكلام صحيح. كيف نفسر إذن أن بهل يرجع ويؤكد أن كلمة «أميّ» مشتقة من كلمة أمة، بمعنى الشعب أى «لائكى أو علمانى» بالمعنى الحديث "Laique"؟ واللائكى أو العلمانى بعكس كليريكوس Kilerico معناها «الرجل غير المختص فى الشئون الدينية».

وأقل مايمكن قوله هنا هو أنه لايعقل أن يصف نبى يأتى ليضع أسس ديانة جديدة نفسه بهذا المعنى. كيف يمكن أن يكون محمداً قد وصف نفسه أمام اليهود والمسيحيين كشخص جاهل فى المجال الدينى؟!

نصل إذن إلى أن رأى بهل سخيف مثلما هو الحال بالنسبة لأقرانه فنسنك وهوروفيتز.

(د) المستشرق نللينو C.A. Nallino كتب هو الآخر حول نفس الموضوع مقالاً قصيراً صدر بعد موته ضمن مجموعة أعماله الكاملة. (Raccolto Si Scritti editi. ed iuedit T 11. Romaigluo pp. 60 - 65). بعنوان: "Il Significaro del Vocabolo Co- ranico "Ummi applicado Raometto e quello si "al Ummyyûn"، حيث يذهب إلى أن «أميّ» مشتق من «أمة عربية»، إنه الرأى الذى اطلعنا عليه فى لسان العرب لابن منظور، لكن نللينو لم يورد على عكس ابن منظور أن العرب لم يكونوا فى مجملهم يجيدون القراءة والكتابة. إذ أضفى هذا المستشرق على لفظ «أميّ» صبغة عرقية أو قومية.

نعود ونقول فيما يتعلق بنا أن رأى نللينو غير مقبول لأنه يقوم على فرضية خاطئة فى أساسها، وهى أن محمداً (ﷺ) كان يعتبر نفسه مبعوثاً للأمة العربية دون غيرها مثلما بعث موسى إلى شعب إسرائيل ويسوع إلى أمة فلسطينية (ماهى لا أحد يعرف).

إذ يبدو الأمر وكأنه نوع من تقسيم العمل ومناطق النفوذ بين الرسل! إن خطأ هذه الفرضية لايمكن أن يخفى عن العيان ويسهل تفنيدها من ناحيتين:

١ ـ أولاً، نذكر أن محمدا (ﷺ) بعث فى عام ٦٢٨ خطابات إلى الملوك الأربعة الكبار فى وقته أى: إمبراطور بيزنطة هرقل الثانى، وملك الفرس كسرى وحاكم مصر المقوقس

وملك الحبشة. وهذا يثبت أن محمداً (ﷺ) قد اعتبر مهمته عالمية. ولو كان يعتبر نفسه مبعوثاً للأمة العربية فقط لما فكر فى إرسال خطابات إلى هؤلاء الملوك الأربعة لدعوتهم إلى الإسلام.

٢ ـ ثانياً، أن القرآن يؤكد بصفة واضحة أن النبى محمد (ﷺ) إنما أرسل إلى كل الإنسانية، حيث جاء فى سورة سبأ، الآية ٢٨: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾**.

نفس الفكرة نجدها فى آيتين آخريين:

(أ) سورة النساء، الآية ٧٣: **﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾**.

(ب) سورة الأعراف، الآية ١٥٨: **﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً﴾**.

ليس هناك شك إذن فى أن محمد (ﷺ) اعتبر نفسه رسول الله إلى كل الإنسانية دون تفرقة فى الجنس، أو الأمم أو الحدود أو اللغة أو اللون. ولم يرد أبداً أن محمداً (ﷺ) جاء نبياً للأمة العربية فقط.

إن عالمية مهمة محمد (ﷺ) حقيقة راسخة لايمكن التشكيك فيها إلا فى حالة الجهل التام.

ثانياً - تفسيرنا:

نقترح بدورنا تفسيراً لصفة «**الأمىّ**» التى تطلق على النبى محمد(ﷺ) انطلاقاً من الحقيقة الأساسية المشار إليها أعلاه. نعتقد أن صفة «**الأمىّ**» نعت مكون من الجمع أمم.

[1] طبقاً لهذا إذن نقول إن كلمة «**أمىّ**» مشتقة من كلمة أمم وهى جمع أمة، ومعناها: عالمى، صالح أو موجه لكل الأمم.

فالنبى **الأمىّ** إذن هو نبى بعث إلى كل الأمم. النبى العالمى إن صح التعبير.

أما الجمع «**أميّون**» الذى ورد أربع مرات فى قرآن (البقرة ٧٨ وآل عمران ٢٠، ٧٢ والجمعة ٢). فتفسيره شعوب مختلف الأمم أو مجملها. ومن منطلق هذا التفسير نقترح تفسير الآيات الأربع الآتية كما يلى:

١ ـ البقرة ٧٨: هناك أمم لاتعرف الكتاب إلا بشكل جزئى أو خاطىء.

٢ ـ آل عمران ٢٠: قل لأهل الكتاب وللأمم الأخرى.

٣ ـ آل عمران ٧٥: لقد قالوا أنه لا سلطان لنا على الأمم الأخرى.

٤ ـ الجمعة ٢: هو الذى بعث إلى الأمم رسولاً من بينهم، أى رجلاً بين الرجال، ليس بإله مجسد كما يقول المسيحيون، أو إنسان خارق كما يقول اليهود. وتفسيرنا هذا ينطبق إذن على الأجزاء الأربعة التى ورد فيها لفظ «**أميّون**».

نضيف أنه لايمكن أن تخفى عن العين سخافة التفسير الذى يجعل من كلمة «**الأميون**» مرادفاً لـ Gentils (لدى كل من: سبرانجر، فنسنك، بلاشير وباريت وغيرهم). خاصة عندما نأخذ الآية ٧٨ من سورة البقرة فى عين الاعتبار ﴿**ومنهم أميون لايعرفون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون**﴾، حيث إذا أخذنا بتفسير هؤلاء تكون هذه الآية مجرد حشو. لأن معنى كلمة جنتيل Gentils هو «الذين لايعرفون الكتب السماوية»، وبالتالى لايمكن معاتبتهم على ذلك، لأن بمثابة معاتبة مسيحى على جهله للكتب البوذية.. إلخ.

وفى الخلاصة نقول إن نعت «**الأمىّ**» الذى يطلق على النبى محمد(ﷺ) معناه: عالمى مبعوث إلى كل الأمم، و«**أميون**» معناه الأمم ومجموع الأمم.

ومن المثير متابعة تاريخ هذا النعت «**الأمىّ**»، وكيفية استعماله من طرف الشعراء والخطباء خلال القرون الهجرية الخمس الماضية لنكتشف متى أخذ هذا اللفظ معنى «الذى لايجيد القراءة والكتابة».

الفصل الثانى

التشابه الكاذب بين القرآن والإنجيل

بحث المستشرقون على مدى قرون متتالية عن وجود تشابه بين القرآن والكتب المقدسة الأخرى. وراحوا يفتشون فى النصوص القرآنية لعلهم يجدون بصمات يستدلون منها على احتمال تأثر النصوص القرآنية بالإنجيل لدى النصارى أو التلمود لدى اليهود. وتبلورت هذه النزعة فى القرن التاسع عشر، حيث اتخذ البحث والدراسة منحى علمى فى الظاهر. فنشرت عدة مؤلفات حول هذه المسألة يمكن حصرها فى صنفين:

أولا - كتب ذات نزعة يهودية، ونذكر منها:

١ - إبراهام جيجر: «ماذا أخذ محمد من النصوص اليهودية؟». بون ١٨٣٣، ط ٢ ليبزج ١٩٠٢م، إعادة طبع ١٩٦٩. Abraham Giger: was har Mohamad aus dem Jundenthume au fgenommen? (Bonn, 1933, 2 Aug. Leipzig 1902, Nachdruck 1969).

٢ - هارتفيج هيرشفيلد Hartwig Hirschfeld:

- العناصر اليهودية فى القرآن: برلين ١٨٧٨. Judische Elemente in Koran (Berlin 1878).
- إسهامات فى شرح القرآن: ليبزج ١٨٨٦. Beitrage zur Erklarung des Korans, (Leipzig 1886).
- بحوث جديدة فى فهم وتفسير القرآن: لندن ١٩٠٢. New Researches into the Composition and Exegesis of the Koran (London 1902).

٣ - سيدرسكى: أصل الأساطير الإسلامية فى القرآن: باريس ١٩٣٣. D. Sidersky: Les origines de Légendes musulmanes dans le Coran. (Paris 1933).

٤ ـ هاينريش سبرنجر: قصص الإنجيل فى القرآن: باريس، ط ٥، برلين وليبزج ١٩٢٦. Heinrich Sprenger: Die Biblischen erzáhlungen im Qoran. (Gràfenhaischer, sd, Berlin und Leipzig, 1926).

٥ ـ جوزيف هوروفيتز: بحوث قرآنية: برلين وليبزج ١٩٢٦. Joseph Horoivitz: Koranische Untersuchumgen (Berlin und Leipzig 1926).

● الأسماء اليهودية ومشتقاتها فى القرآن: حوليات الكلية العبرية، المجلد الحادى عشر، عام ١٩٢٥، ص ١٤٥ ـ ٢٢٧ م. هيلد سهيم، إعادة طبع ١٩٦٤. Jewishc proper Names and derivatives in the Koran. (Hebrew College Annual, Vol. 11, Ohio 1925. p 145 - 227, Nachdruck Hildesheim, 1964).

٦ ـ إسرائيل شابيرو: عناصر فى رواية القرآن: برلين ١٩٠٧م. Die Haggadischem Elements in Erzàhl. Teil de Korans (Berlin 1907).

ثانياً ـ الكتب ذات التوجه المسيحى التى يمكن أن نذكر منها:

١ ـ ريتشارد بيل: أصل الإسلام فى بيئته المسيحية: طبع فى لندن ١٩٢٦ وأعيد طبعه عام ١٩٦٨. Richard Bell: The origin of Islam in its christian environnemeut, (London, 1926, Reprint 1968).

● مدخل إلى القرآن: اندنبرج ١٩٥٣. Introduction to the Qurán, Endinburg, 1953.

٢ ـ تور أندريه: أصل الإسلام والمسيحية: أوبسلوا ١٩٢٦. Tor Andrae: Der ur-sprung das Islam und Christentum (Upsola 1926).

علينا الآن أن نتوجه بالبحث فى المنهج المتبع فى كل هذه الكتب التى اجتمعت كلها على إرجاع أصل القرآن إلى نصوص أخرى فى الكتب المقدسة.

لقد اتبع هؤلاء المستشرقين منهجاً عاماً مفاده أن محمد (ﷺ) الذى يتهمونه بتأليف

القرآن، قد استقى واستعار من الكتب المقدسة وشبه المقدسة المسيحية واليهودية أغلب القصص والصور المجازية والأمثال والحكم.

وطبقاً لهذه المزاعم يفترض إذن فى محمد (ﷺ) إتقانه للغة العبرية والسريانية واليونانية. كما يفترض أيضاً أنه قد امتلك مكتبة ضخمة تضمنت على نصوص التلمود، والأناجيل ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجالس Decisions des Conciles، وكذلك على بعض أعمال الأدباء اليونانيين ومختلف الكنائس والمذاهب المسيحية!

ومما لاشك فيه أن هذه الافتراضات التى تطرحها ضمنياً كتب هؤلاء المستشرقين غير معقولة. فحياة النبى محمد (ﷺ) معروفة قبل الدعوة مثلما هى معروفة بعدها لدى الجميع؛ على الأقل فى جوانبها الخارجية. ولم يرد قط لدى المعاصرين أو القدامى على حد سواء أن النبى محمد (ﷺ) قد امتلك مكتبة ما أو قد أتقن لغة أخرى غير العربية.

ومما يلفت النظر كذلك فى كتب هؤلاء المستشرقين هو إصرارهم على النظر للقرآن كنص مسروق كلما وجدوا فيه حقيقة معرفية تضمنتها الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية.

وكأن على القرآن، حتى لايقذف بتهمة السرقة، أن يحمل فى طياته حقائق مخالفة للعلم وللمعقول! وكلما عثر هؤلاء المستشرقين فى القرآن على كلمة مشابهة لكلمة أخرى وردت فى الكتاب المقدس سارعوا إلى استنتاجات كلها خاطئة فى أساسها. وإنى أتساءل: كيف استطاعوا، وهم الذين يدعون العلم أن يوقعوا أنفسهم فى مثل هذه السخافات؟!

وربما كان المستشرق هارفيتج هيرشفيلد أكثرهم شغفاً بهذه اللعبة العقيمة. وحتى نكتشف مدى مغالاتهم وجريهم وراء استنتاجات مغلوطة بدافع الإساءة إلى الإسلام لا بدافع العلم، سنتناول أطروحاتهم بالبحث الواحدة بعد الأخرى.

مزاعم هيرشفيلد Hirschfeld (١٨٥٤ - ١٩٣٤)

يدعى هذا الأخير اعتماداً على نصوص قرآنية ونصوص من الإنجيل أن هناك تشابه وتوازى بين الاثنين. وعلينا الآن أن نتفحص بعض ما أدلى به من ادعاءات على ضوء النصوص التى لجأ إليها لإثبات أطروحته.

١

سورة الرحمن	سفر المزمور ١٣٦ (العهد القديم)
الآية ٥: الشمس والقمر بحسبان	٨: الشمس لحكم النهار.
الآية ٦: والنجم والشجر يسجدان	٩: القمر والكواكب لحكم الليل.
الآية ٧: والسماء رفعها	٥: الصانع السموات بفهم.
الآية ٩: والأرض وضعها للأنام	٦: الباسط الأرض على المياه.

إننى أدعو القارىء للإمعان فى النصين القرآنى والإنجيلى ليحاول معى إيجاد أى تشابه يذكر.. كيف أوجد هيرشفيلد تشابهاً بين فقرتين لاعلاقة لهما ببعضهما؟ فالقرآن يذكر الطابع الدورى لحركة الشمس والقمر، بينما لايذكر المزمور شيئاً عن هذا الموضوع.

ورد فى القرآن أن النبات والأشجار تسجد لله، بينما لانجد هذه الفكرة فى المزمور الذى يتحدث بعد ذلك عن الحكمة التى خلق الله بها السموات. لكن القرآن لايذكر سوى أن الله رفع السماء.

أما فى الآية القرآنية التاسعة من هذه السورة فقد ورد أن الله بسط الأرض لصالح الإنسانية جمعاء. فى الوقت الذى تتحدث فيه الآية السادسة من المزمور عن حالة جغرافية بسيطة وهى أن الأرض ممتدة فوق المياه.

أين إذن التشابه بين سورة الرحمن وبين نصوص المزامير التى وردت فى العهد القديم؟

أى تهيؤات جعلت هيرشفيلد يؤمن بوجود تشابه، وبالتالى سرقته؟

٢

نفس التهيؤات المرضية دفعت هيرشفيلد للقول إن هناك تشابه بين سورة النحل والمزمور ١٠٤، وأنها بالتالى مستعارة منه.

(أ)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٢: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون	٤: الصانع ملائكته رياحاً وخدّامه ناراً ملتهبة

يتناول القرآن فى هذه الآية مسألة إرادة الله المطلقة فى أن يختار من يشاء من بين عباده ويضع على عاتقه عبء النبوة، وفى أن ينزل عليه ملاكاً، مثل جبريل، حاملاً رسالة الله.

بينما يتحدث المزمور ١٠٤ فى الآية ٤ عن مجرد ظواهر طبيعية وفزيائية. أين وجد هيرشفيلد إذن التشابه؟

ونواصل رحلتنا مع هيرشفيلد ومع التشابه المزعوم بين سورة النحل والمزمور ١٠٤.

(ب)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٣: خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشكرون	٢: اللابس النور كثوب الباسط السموات كشقّة. ٥: المؤسس الأرض على قواعدها ...

أسأل نفسى مرة أخرى بحيرة: كيف رأى هيرشفيلد تشابهاً بين النصين؟ وكيف استطاع أن يوازى بينهما؟ بينما هما مختلفان كل هذا الاختلاف.

تتحدث الآية القرآنية عن حكمة وقوة الله الذى خلق السموات والأرض فى انسجام تام وبدون أن تسقط الأولى على الثانية. مما يثبت أن الله وحده لاشريك له. ويكتفى المزمور فى المقابل بتشبيه السماء بسجف أو ستار وبالتأكيد على أن الأرض مؤسسة على قواعد ثابتة.

(جـ)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ١٠: هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجرٌ فيه تُسيمون	٣: المسقف علاليه بالمياه الجاعل السحاب مركبته الماشى على أجنحة الريح

من البديهى أن النصين يتناولان مسائل مختلفة. إذ يذكر القرآن تلك المنفعة التى نفع الله بها الناس والمتمثلة فى الماء. أما المزمور فيتطرق للمنازل والسحب والرياح التى يمتطيها الله.

أضف إلى هذه التباين الشاسع كون آية المزمور فى غاية المادية. أى أنها تصف الله بصفات مادية مجسدة على نحو مذهب التشبيه (الانثربومورفيزم) الذى يتصور صفات الله على غرار صفات الإنسان. وهو مايتنافى مع التصور الإسلامى عن الله سبحانه وتعالى. وبالتالى يستحيل أن توجد فى القرآن آية معادلة لآية المزمور.

(د)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ١٠: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون	١٤: المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خير من الأرض ١٥: وخمر تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان

يتحدث القرآن هنا عن المطر الذى ينبت الزرع، بينما يتحدث المزمور عن كون الله ينبت العشب، دون ذكر المطر. كما أن القرآن فى هذه الفقرة لم يذكر الخمر «التى تفرح قلب الإنسان لإلماع وجهه أكثر من الزيت» إذ أن هذا يتعارض تماماً مع نص قرآنى آخر (سورة البقرة الآية ٢١٩، وسورة المائدة الآية ٩٠). كما أن المزمور تعرض لعموميات بذكره النبات بصفة عامة بينما فصل النص القرآنى ذاكراً الزيتون والنخيل والأعناب.

فإن لم يكن النصين القرآنى والإنجيلى متعارضين تماماً فإنهما مختلفان كل الاختلاف.

(هـ)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ١٤: وهو الذى سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون	٢٥: هذا البحر الكبير الواسع الأطراف هناك دبابات بلا عدد صغار حيوان مع كبار ٢٦: هناك تجرى السفن لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه

يتناول النصان موضوع البحر بشكل مختلف. إذ يذكر القرآن منافع مافى البحر من سمك وطرق مواصلات على أنها هبة من الله لعباده.

ويكتفى المزمور بوصف البحر قائلاً إن الله خلق الليفاثان (التنين) ليلعب معه.

(و)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٣٨: وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت.	٢٩: تحجب وجهك فترتاح. تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود

الآية ٦٨: أو لم يروا إلى ماخلف الله
من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين
والشمائل سجّداً لله وهم داخرون.

الآية ٦٥: والله أنزل من السماء ماءً
فأحيا به الأرض بعد موتها
إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون

الآية ٧٠: والله خلقكم ثم يتوفاكم....

أى تهيؤات دفعت هيرشفيلد إلى إيجاد تشابه بين كل هذه الآيات المفعمة بالأفكار وبين الآية القصيرة من هذا المزمور؟ كيف زعم أن الأولى مجرد صدى للثانية؟!

وقد ورد فى هذه الآيات القرآنية مسألة بعث الأموات. وأكد القرآن ذلك طالما أن الأرض تحيا بعد موتها بمجرد أن تروى بالماء. وعلى النقيض من ذلك نجد أن المزمور يتحدث عن الله الذى يسترجع روح الإنسان، أى عن الموت المطلق دون ذكر البعث.

(ز)

سورة النحل	المزمور ١٠٤
الآية ٤٢: الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون.	٢٧: كلها إيّاك تترجى لترزقها قوتها فى حينه.

وهنا أيضاً فإن أقل مايمكن قوله؛ هو أن النصين يتناولان مسائل مختلفة. يحمل النص القرآنى مفهوم العقيدة والصبر والاعتماد على الله. بينما يتطرق المزمور لأمل الناس فى أن يمنحهم الله زادهم. فالقرآن يتعرض لمثل عليا وقيم رفيعة حيث يركز المزمور فقط على احتياجات المعدة.

(ح)

سـورة النحل	المزمـور ١٠٤
الآية ٤٩: ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون.	٣٣: أغنى للرب فى حياتى. أرنّم لإلهى مادمت موجوداً.

لا توجد أية علاقة بين النصين السابقين لأن الآية القرآنية تشير إلى أن كل مخلوقات السموات والأرض ومعها الملائكة تسجد لله. وبينما يتغنى شخص واحد فقط فى المزمور لعظمة الله نجد أن الخليقة كلها ترتل نفس التهجد لله.

فكيف نقارن الأنانية التى تحملها أسطر المزمور بالعالمية التى يقترحها القرآن؟

(ط)

سـورة النحل	المزمـور ١٠٤
الآية ٥٠: يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون.	٣٤: فيلذ له نشيدى وأنا أفرح بالرب

نفس الأنانية نستشفها فى آية المزمور يقابلها التواضع والطاعة فى القرآن.

(ى)

سـورة النحل	المزمـور ١٠٤
الآية ٦١: ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة...	٣٥: لتبد الخطاة من الأرض والأشرار لايكونوا بعد باركى يا نفسى الرب.

تبين هذه الآية القرآنية لماذا لايعاقب الظالمون وهم على وجه الأرض. وعلى العكس من ذلك نلاحظ أن آية المزمور تطالب بفنائهم من على البسيطة.

(ك)

سـورة النحل	المزمـور ١٠٤
الآية ٧٩: ألم يروا إلى الطير مسخّرات في جو السماء مايمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.	١٢: فوقها [الماء] طيور السماء تسكن ١٧: حيث تعيش هناك العصافير. أما اللقلق فالسرو بيته.

يشير القرآن هنا إلى قدرته التى بها تحلق الطيور فى السماء متحدية قوانين الجاذبية مما يدل على قوته الإلهية. ويكتفى المزمور بوصف الطيور التى تلجأ إلى منبع الماء وتبنى أعشاشها فى أغصان الشجر. لكن المزمور لم ينبس بكلمة عن القدرة الإلهية.



إن هذه الأمثلة التى عرضناها لكافية لتوضيح المنهج والتصور الذى تبناه هارفيج هرشفيلد فى كتابه: «بحوث جديدة فى فهم وتفسير القرآن»، لندن ١٩٠٢. New Researches into the Composition and Exgesis of the Qoran, London 1902.

لقد بذل هذا المستشرق مجهوداً جباراً لإثبات مزاعمه وإدعاءاته، ولإيجاد تشابه وتوازى بين نصوص القرآن ونصوص الإنجيل حيث لايوجد أى مجال للمقارنة. وماهذا إلا دليل على أنه كان ضحية تهيؤات مرضية سببها تعصب أعمى زاد فى شدته تعنت متعجرف.

ولقد تمادى فى الجنون والتعصب لدرجة أنه أكد أن القرآن ماهو إلا نسخة مزورة من الإنجيل (نفس المرجع أعلاه، المقدمة ص ٢).

ونصادف نفس العمى المرضى أيضاً فى كتابه: «العناصر اليهودية فى القرآن»، الصادر فى برلين ١٨٧٨م. (Jüdische Elemente in Koran, Berlin 1878) وكذلك فى كتابه: «مساهمات لشرح القرآن»، ليبيزج ١٨٨٦م. (Beitràge zur Erklàrung des Korans (Leipzig, 1886)

ولقد علق بعض المستشرقين على أعمال هارفيج هيرشفيلد تعليقات عديدة نوجز بعضها فيما يلى:

يقول د. سايدرسكى D. Sidersky عند الإشارة للكتابين السابقين (العناصر اليهودية..) و(بحوث جديدة..): «للأسف لم يضف هذا العالم شيئاً يذكر فيما يتعلق بمصادر وأصل الأساطير القرآنية». (أصول الأساطير الإسلامية)، باريس ١٩٣٣، ص ٢، هـ ١. (Les Origines de légendes musulmanes, Paris 1933. p. 2. n. 1).

ويستشهد رودى باريت Rudi Paret فى الجزء الثانى من كتابه (القرآن، تعليق وتطابق)، شتوتجارت ١٩٧١، ص ١٢. (Der Koran, Kommentar und Konkordanz Stuttgart, 1971, p 12).

بكتاب هيرشفيلد (بحوث جديدة...) مشيراً إلى الصفحات ١٠١ و١٠٣، حيث علق على الأحرف التى تبدأ بها بعض السور القرآنية، لكننا ننبه هنا القارىء أن المرجع الذى استند عليه باريت خاطىء. لأنه كان عليه أن يرجع للصفحات ١٤١ ـ ١٤٢ وهى التى تناول فيها هيرشفيلد «نظرية الأحرف الأولى(؟)» "Theories of the Initials".

ويستشهد باريت مرة أخرى فى نفس الكتاب برأى هيرشفيلد حول كلمة (حطة) التى وردت فى سورة البقرة الآية ٥٨ قائلاً: «ربما يرجع مصدر كلمة (حطة) إلى نص الاعتراف بالخطايا المتضمن فى المشنا «سفر يونان» (Yômà 111, 8, n, 2, VI, 2).

إلا أن باريت لم يعلق على رأى هيرشفيلد الخاطىء. حيث إن نص المشنا المشار إليه لايحتوى على كلمة (حطة) ولا على أى كلمة أخرى تشبهها فى النطق. مما يثبت للمرة الألف أن إدعاءات هيرشفيلد مجرد هراء لأنها لاتقوم على آية براهين أو وثائق.

ويلجأ باريت (ص. ١٩ ـ ٢٠) إلى آراء أخرى لشرح كلمة (حطة). ومايميز هذه الآراء هو التأكيد على أن كلمة (حطة) كلمة عبرية أو ذات أصل عبرى دون أن نتفق مع ذلك على الكلمة العبرية نفسها.

وتجدر الإشارة إلى أن المفسرين المسلمين قد شرحوا كلمة (حطة) بأنها كلمة عربية معناها: «اغفر لنا أخطاءنا»، بحيث تكون العبارة كاملة: «حط عنا أوزارنا». أما بلاشير

Blachére فى ترجمته للقرآن فهو يترجمها بكلمة Pardon أى (غفران). ويدعى سبيير Speyer أن كلمة (حطة) ماهى إلا تحريف للكلمة العبرية حطنو Hâtanû التى جاءت فى الآية أربعين من كتاب موسى (العدد، الإصحاح ١٤) من العهد القديم «ثم بكروا صباحاً وصعدوا إلى رأس الجبل قائلين هو ذا نحن. نصعد إلى الموضع الذى قال الرب عنه فإننا أخطأنا».

ولما كانت هذه الآية لاتتفق مع المعنى المقصود من كلمة «حطة»، قال سبيير أن محمداً «كان يعتقد أن اليهود الذى مافتئوا يرفضون الدخول إلى الأرض المقدسة قد حمّلوا الكلمة معنى آخر لتقوية عزيمتهم. ربما علينا أن نفكر فى كلمة «حطة» بمعنى (الحِنطة) كما وردت فى العهد القديم فى سفر التثنية الإصحاح الثامن «أرض حنطة» أو بالعبرية أرس حطة "ars hitta". وبالتالى يمكننا أن نفسر الآية المذكورة أعلاه أن بنى إسرائيل قالوا «حطنو» hâtanû دون أن يقصدونها بالمعنى المباشر بل بمعنى ثمرة الأرض المقدسة وليس بمعنى أمر الله». سبيير: (الحكايات الإنجيلية فى القرآن، ص ٣٣٧ ومابعدها). (Speyer: Die Biblischen Erzàhlungen in Koran, p 337. f).

هذا الاقتراح الذى تبناه سبيير مبالغ فيه ومعقد لدرجة يصعب معها الاقتناع به. فملخصه الآتى: عندما اقترب بنو إسرائيل من الأرض المقدسة تراجعوا عن عزمهم بعد ماسمعوه من أنباء غير سارة نقلها لهم الرجال الذين بعثهم موسى يتجسسون على الأرض. لقد شعروا بالندم وتوجهوا إلى قمة الجبل قائلين: «فإننا قد أخطأنا: حطنو hàtanû». لكنهم لم يقصدوا بهذه الكلمة بمعناها الحقيقى وإنما قصدوا بها المعنى الآخر أى (الحِنطة)»!!.

إنه فعلاً تفسير خيالى يفهم منه أن محمداً كان ملماً بثنايا اللغة العبرية! طالما استطاع أن يختلق هذا القصد. وفرضاً أنه استقى هذا المعنى من يهود يثرب فإننا نتحدى أى شخص يعثر على مثله فى الكتب اليهودية.

لقد أظهر سبيير عبقرية مزيفة فى إثبات فرضية خاطئة فى أساسها وهى أن كلمة (حطة) ماهى إلا كلمة عبرية.

لكن عندما يختلق المرء كذبة ما، يصبح أسيراً لها؛ ويضطر بعد ذلك لمحاولة إثبات صحتها بكافة الوسائل. إن هذه الحالة تنطبق تماماً على هؤلاء المستشرقين الذين يطلقون على أنفسهم لقب علماء.

فموقف هؤلاء الباحثين اليهود ماهو فى حقيقة الأمر إلا نتيجة منطقية لتحيزهم وبحثهم المسعور عن بصمات عبرية ويهودية فى القرآن. حتى هوروفيتز Horovitz يعترف، وهو أيضاً من بين المتحيزين، أن التفسير الذى يقدمه هيرشفيلد وكذلك زميله ليزنسكى Laszynski (ص ٣٢ Die Juden) غير مقنع.

ونصل فى الخلاصة إلى أن الدراسات الثلاثة التى خصصها هيرشفيلد للعلاقة بين القرآن والنصوص المقدسة اليهودية غير ذات قيمة تذكر. لأنها مبنية على تشابه خاطىء وعلى تحيز مفضوح وعلى افتراضات مرتجلة ينقصها الفهم. إنه بفضل هذه «المزايا» أصبح أستاذاً فى كلية الجامعة University College عام ١٩٢٤.

٢ ـ كليرمون جانو Clermont - Ganneau

تشبيه النور ـ (سورة النور الآية ٣٥)

لقد تعرض لهذا المثل (أو الصفة) Parabole مجموعة كبيرة من المستشرقين منهم:

- د. ب ماكدونلد مادة: الله، موسوعة الإسلام، الطبعة الأولى. D.B. Macdonald, art. Allàh (Encycl. of Islam, 1er edi).

- ر. بيل: جذور الإسلام، ص ١١٥. R. Bell: Origin of Islam, p 115 sqq.

- كليرمون جانو: المصباح وشجرة الزيتون فى القرآن. فى مجلة تاريخ الأديان، العدد ٨١، عـــام ١٩٢٠م، ص ٢١٣ – ٢٥٩. Clermont - Ganneau: La lampe et l'olivier dans le Coran (in Revue de l'histoire des religions 81, 1920, p 213 - 259).

- سبير: القصص الإنجيلية فى القرآن. ص ٦٢ ـ ٦٦. H. Speyer: Die Biblischer Erzàhlungen in Koran, pp 62 - 66 sqq.

● بهل: عن المقارنات والتشبيهات فى القرآن. (فرنز بهل: حول المفارقات فى القرآن الكريم، المجلة الشرقية، ٢، ١٩٢٤م، ص ١ ـ ١١). (Fr. Buhl: Vber verqleichungen und Gleichmisse im Qu'rân, in Acta Orientalia 2, 1924, p 1-11).

والحقيقة أن الأمر هنا فى كل هذه الكتب يتعلق لمثل أو تشبيه النور الإلهى الذى ورد فى سورة النور الآية ٣٥، التى جاء فيها: **﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾**.

إن هذه الآية هى مرجع معظم الصوفية المسلمين وهى أساس كل مذاهب الإشراق فى الإسلام.

لنرى كيف أوجد العلماء الذين ذكرناهم أعلاه علاقة بين النص القرآنى والنصوص الإنجيلية.

يقول ماكدونالد: «يبدو من خلال السياق أن هناك إشارة إلى الخدمة الإلهية المتبعة فى الكنائس والأديرة. وتكون الصورة فى هذه الحالة مأخوذة من الهيكل فى الكنيسة Autel المغمور بالأنوار. ثم أن العبارات القرآنية قد تكون ذات علاقة «بنور الكون» فى الإنجيل و«بنور النور» فى الإعلان العقائدى لمجمع نيقيا "La pofession de foi du Concile de Nicée".

ونحن لايمكننا أن نمر على هذا الإدعاء دون أن نسجل تحفظات عديدة:

● **أولاً**: أن أنوار الهيكل فى الكنيسة متعددة، بينما لم يرد فى الآية القرآنية سوى نور كثير يفيض على السموات والأرض.

● **ثانياً**: فى إعلان العقيدة الذى ذكره ماكدونالد كتب أن الله هو Phôs ek phôtis نور يأتى من نور. وجاء فى النص القرآنى **﴿نور على نور﴾** أى نور خالص. فالمعنى إذن مختلف فى النصين.

● **ثالثاً**: لقد درج شعراء الجاهلية مثل امرؤ القيس على وصف مصابيح الرهبان التى يهرب منها النور وكأنه يتسلل من وحدة الاعتكاف والعزلة. ولم يكن النبى محمد ليستعير هذا التشبيه السائد آنذاك ويصف النور الإلهى. لأن ذلك يكون بمثابة الكفر.

نؤكد لهذه الأسباب الثلاثة أن طرح ماكدونالد خاطىء.

ويقدم المستشرق كليرمون جانو Clermont - Ganneau طرحاً آخر زاعماً أنه اكتشف تشابه بين الآية القرآنية وبين فقرة من كتاب زكريا من العهد القديم، الإصحاح الرابع الآيات ١ ـ ٣ حيث يقول: «فرجع الملاك الذى كلمنى وأيقظنى كرجل أوقظ من نومه. وقال لى ماذا ترى؟ فقلت قد نظرت وإذا بمنارة كلها ذهب وكوزها على رأسها وسبع سروج عليها وسبع أنابيب للسرج التى على رأسها. وعندها زيتونتان إحداهما عن يمين الكوز والأخرى عن يساره. فأجبت وقلت للملاك الذى كلمنى قائلاً ماهذه ياسيدى؟ فأجاب الملاك الذى كلمنى وقال لى أما تعلم ماهذه؟ فقلت لا ياسيدى. فأجاب وكلمنى قائلاً. إنما هى أعين الرب الجائلة فى الأرض كلها. فأجبت وقلت له ماهاتان الزيتوناتان عن يمين المنارة وعن يسارها؟ فقال هاتان هما ابنا الزيت الواقفان عند سيد الأرض كلها».

يظهر جلياً مما سبق أن كل من النصين القرآنى والإنجيلى لايتشابهان.

حيث نجد أن سفر زكريا يصف شمعداناً من ذهب يعلوه كوز يحمل سبعة مصابيح، وعلى يمينه وشماله شجرتا زيتون. ولا نجد أثراً لهذا فى الآية القرآنية. حيث أن مجرد الحديث عن سبع مصابيح يتعارض تماماً والنص القرآنى الذى لم يذكر سوى مصباح واحد؛ لأن الله واحد وليس سبعة ولم يتحدث إلا عن شجرة زيتون واحدة. فهذه الشجرة: **﴿لا شرقية ولا غربية﴾** لأنها روحية. فما أبعد فقرة سفر زكريا عن الآية القرآنية!

ويبدو أن كليرمون ـ جانو قد حاول التراجع قليلاً عن الرأى الذى أدلى به أعلاه لما أدرك الفرق الشاسع بين النصين. فقال «إن كان محمد قد استوحى من التقاليد اليهودية والمسيحية جوهر مثله فإنه على مايبدو قد آثر الابتعاد عنها عن قصد فيما يتعلق بشكل النور الذى يحتل فى كل النصين مكانة هامة. وبالتالى اختفى فى النص القرآنى الشمعدان ذا الفروع السبعة الذى ظهر لزكريا فى رؤياه» (نفس المرجع، ص ٢٤٦).

ماذا يبقى إذن بعد هذا من رؤيا زكريا؟ لم يبق سوى مصباح. وهذا غير كاف بالمرة للتأكيد على أن هناك تقارب وتشابه بين فقرة سفر زكريا وبين الآية القرآنية.

ولم يساعد كليرمون جانو لجوئه على إثبات أن محمد قد استعار صورة النور من مشهد المصابيح المتلألئة فى الكنيسة القسطنطينية والكنائس الأخرى بالقدس (ص ٢٣٨). لأنه يعترف شخصياً بأن النبى محمد لم تطأ قدمه القدس لا كزائر أو كحاج (ص ٢٤٣). ولما خانته كل السبل لجأ إلى الإدعاء بأن تميم الضارى هو الذى لقن لمحمد كل المعلومات عن الطقوس اليهودية حيث يقول: «يبدو أنه كان لتميم الضارى تأثير كبير على فكر محمد وعلى بعض أفعاله (ص ٢٤٧).. وأن محمد استفاد من معلومات تميم إلى أن اكتملت له الصورة عن المعتقدات والتقاليد والمراسيم المسيحية الشرقية» (ص ٢٤٨).

على ما يبنى كليرمون جانو إذن زعمه؟ الواضح أنه لايبنيه على شىء محدد، حيث لم يقدم أى مرجع؛ ولم يعط أى برهان، إن الأمر هنا لايعدو أن يكون مجرد توهمات صنعها خيال تائه.

٣ - جوزيف هورفيتز Josheph Horovitz

١ ـ **﴿أيّام الله﴾** (سورة إبراهيم الآية ٥، وسورة الجاثية الآية ١٤).

يؤكد هورفيتز فى كتابه «دراسات قرآنية» Koranische Untersuchungen, p 22 أن هناك تشابهاً بين عبارة «أيام الله» وعبارة ميلهامت ياحوا Milhamôt yahwa العبرية التى وردت فى سفر العدد الإصحاح ٢١ الآية ١٤. حيث يقول «مثلما تذكر سورة هود فى الآية ٩١ شعيب بتعاليم أجداده فإن سورة إبراهيم تأمر موسى صراحة بتذكير شعبه «بأيام الله». وماهذه العبارة إلا تعريب لكلمة مليهاموت ياحوا التى جاءت فى سفر العدد الإصحاح ٢١، وقد حصل هذا التعريب بالقياس مع ماهو معروف بأيام العرب».

كيف توصل هوروفيتز إلى هذه النتيجة؟ لا ندرى، أما هو فلم يفسر كيف توصل لذلك. هذا هو نص سفر العدد الذى استشهد به هوروفيتز «لذلك يقال فى كتاب حروب الرب (ميلهاموت ياحوا) واهب فى سوقه وأودية أرنون». إن هذا النص هو الجزء الوحيد المتبقى

من مقتطفات النصوص الملحمية اليهودية. ويوضح هذا النص الآية ١٩ التى تقول إن الأرنون هو نقطة حدود موآب فى الشمال وفيما عدا هذا فإن النص لايذكر شيئاً عن أى يوم من أيام الله.

كيف يمكن إذن أن يكون محمد قد استلهم منه عبارة أيام الله؟

هل يكون محمد قد علم بمحتوى قصة حروب الله التى لايعلم تفاصيلها اليهود أنفسهم والتى لم يتبق منها سوى هذا الجزء من الآية ١٤ من الإصحاح الواحد والعشرون من سفر العدد؟!

ياله من اختلال فى التفكير! وقد تميز هوروفيتز ببراعته فى هذا المجال.

تفسر المعاجم العربية عبارة «أيام العرب» بأنها: الحروب، والصراعات والمعارك. ويقال فى هذا السياق «عالم ملم بحروب العرب» أى أنه على علم بها. وجاء فى لسان العرب «أما عن عبارة أيام الله فى الآية ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ فمعناها، ذكرهم بنعم الله التى أنعم فيها عليهم وبنقمه التى انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود.

وقال الفراء: معناه خوّفهم بما أنزل الله بعاد وثمود وغيرهم من العذاب وبالعفو عن آخرين.

وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿لايرجون أيام الله﴾، قال نعمه. وروى عن أبىّ بن كعب عن النبى (ﷺ) فى قوله تعالى ﴿وذكرهم بأيام الله﴾، قال: نعمه. (لسان العرب لابن منظور، انظر يوم).

يستنتج من هذا الشرح أن علماء اللغة العرب لم يقرنوا بين عبارتى أيام الله وأيام العرب ولم يروا فيهما أى تقارب.

وأيام الله لدى هؤلاء العلماء هى نعمة ونقمة يتواليان مثلما تتوالى الأيام.

ووجه التشابه الوحيد فى الحالتين هو توالى الأيام فلكياً وتوالى نعم الله ونقمه. إنه شرح واضح وبسيط. فلماذا إذن البحث عن أصل العبارة فى نص مفقود ذكر بصورة مبهمة فى سفر العدد؟

٢ ـ الكلمات المشتقة:

فى كتابه الصغير «أسماء الأعلام اليهودية والاشتقاقات فى القرآن» (٨٣ صفحة). Jewish Propers Names and Derivatives in the Koran (Ohio, 1925 Nachdruck Olms, Hildesheim 1964). يحاول هوروفيتز جاهداً إثبات أن الكلمات القرآنية : «المعتكفات، أمر، أمانة، بركة، تبارك، بهيمة، مثانى، خلاق، رب العالمين، سكينة، صدقة، عزر، قيوم، كفارة، ماعون، منهاج، جبار، ربانى، سفك الدماء، قدوس، سورة، نبوة، بعير، عبادة، بور، صديق، جنات عدن، عليون، تزكى» مشتقة من العبرية وأن محمد تعلمها من اليهود فى مكة وفى المدينة خاصة.

إن هذه الإدعاءات الخطيرة تستوجب منا وقفة حاسمة لنسجل الملاحظات الآتية:

أولاً: إن العربية والعبرية لغتان ذات جذع واحد وهو الجذع السامى. مما يجعل المساحة المشتركة بينهما واسعة. وبالتالى فإن احتواء القرآن على مصطلحات بين العربية والعبرية لايعنى بأى حال من الأحوال أن محمداً قد استعارها من اليهود الذين عاصروه.

فمن المحتمل إذن أن تكون هذه المصطلحات قد تشكلت فى المخيلة العربية أجيالاً قبل الرسول لتصبح جزءاً لايتجزأ من الثروة اللغوية العربية.

ثانياً: بما أن تاريخ اللغة العربية قبل الإسلام يكاد يكون مجهولاً بسبب نقص النصوص المكتملة فإنه يصعب تحديد مصدر هذه الكلمات. هل أخذت من اللغة العربية إلى العبرية أو العكس. فلم يصلنا من فترة الجاهلية سوى بضع قصائد شعرية مشكوك فى أصحابها، وفى أصالتها، ومخطوطات نادرة وقصيرة تناولت مواضيع لا تسعفنا فى بحثنا هذا.

لهذا لايمكن الجزم بأن محمد قد استعار هذه الكلمات من اليهود.

وهاتان الحجتان كافيتان فى اعتقادنا لدحض أى محاولة للخوض فى هذا المجال.

سنبحث الآن فى بعض هذه الكلمات لنثبت بالحجة والبيان أن إدعاءات هؤلاء المستشرقين لا أساس لها من الصحة.

أولاً: كلمة خلاق = نصيب، التى وردت فى سورة البقرة الآية ٢٠٠ ﴿وما له فى الآخرة من خلاق﴾.

يدعى هريشفيلد خطأ فى كتابه «أبحاث جديدة» "New Researches" أن نفس العبارة جاءت فى ميشنا سنهدرين Mishna Sanhadrin الذى وردت فيه كلمة (إن لاَ هِمْ حيليَقْ مِنْ هَاعُولاَم) لهم جزء من العالم ên lâhem heleq là-olâm.

أما هوروفيتز فيضيف قائلاً: «مع هذا فإن شكل الكلمة العربية غريب نوعاً ما، والألف الممدودة تجعلنا نعتقد بأنها مشتقة من اللغة الآرامية حيث نجد نفس الكلمة بشكل «حولاق» "hulâq"، ولهذا نفترض أن محمد قد اطلع أولاً على الكلمة فى أشكال مركبة مثل أنْ حيليقْ مِنْ هَاعُولاَم (أنت جزء من العالم) "hulâq àlma de-âtê". (سفر التكوين ٢٥ : ٣٤) Targum jer. Genesis 25:34.

ومثل عبارة جزء من عالم (جنة) عَدَنْ (حِيلقَات ميعولا لْم عِدِنْ) (Targums Esther 11.2:7) hulâka be âlma hâden v.be âlma de - âtie

أى أن محمداً اطلع على الكلمة من خلال نصوص التأملات اليهودية. كما أن كلمة "hulâq" مستعملة لدى المسيحية اليهودية بمعنى نصيب. لكن هذه الكلمة غير مستخدمة هناك بمعنى «نصيب فى الآخرة». (هوروفيتز: الأعلام اليهودية...) (Horovitz, Jewish Proper Names, pp 138, 133: pp 54-55 Nachdruck)

وخلاصة الموضوع الذى نحن بصدده هى كالآتى: طبقاً لما يقوله هيرشفيلد يكون محمد قد اطلع على المشنا، وهذا يفترض إتقانه للغة العبرية. أما طبقاً لهوروفيتز فإن محمد كان على علم بنصوص التأملات اليهودية (ترجمة Targums) وبالتالى على علم كذلك باللغة الآرامية! أهذا معقول؟

ويكفينا أن نعود إلى لسان العرب ونبحث عن كلمة خلق للتأكد من أن كلمة خلاق حملت معنى «نصيب» لدى الشاعر حسان بن ثابت؛ الذى كان ينظم الشعر قبل لقاءه بالرسول. مما يدل على أن كلمة خلاق كانت شائعة لدى العرب قبل الإسلام. فما جدوى

البحث عن أصلها فى اللغة العبرية أو اللغة الآرامية، فالمسألة تتلخص فى الآتى: الكلمة العبرية حلق Heleq والكلمة العربية خلاق كلاهما ذات أصل واحد وتعنيان «نصيب». هذا كل مافى الأمر.

ثانياً: نفس التحليل ينطبق على كلمة بعير التى وردة فى سورة يوسف الآية ٦٥ ـ ٧٥.

لكن المستشرق دفوراك Dvorak (تقارير الاجتماعات الأكاديمية فى فيينا ـ قسم الفلسفة والتاريخ، المجلد التاسع، ص ٥٢٢) (Sitzungoberichte der Wiener Akade- mie Philos - hist. Klasse, Vol. IX, p 522 sqq).

يزعم أنها مشتقة من اللفظ العبرى بيعير be'îr (الماشية) الذى جاء ذكره فى سفر التكوين (٤٥:١٧).

لكن هوروفيتز يعلق قائلاً: «طبقاً لهذا الرأى فإنه يفترض أن الكلمة التى وردت فى النص العبرى قد وصلت إلى مسمع محمد وظلت عالقة بذاكرته ليعطيها بعد ذلك المعنى العربى لبعير أى الإبل. ويستعمل محلها كلمتى (جمل) أو (ناقة) فى مواضع أخرى من القرآن. هكذا لم تعد الكلمة تحمل معنى (الحمار) لأن هذا الحيوان لايصلح فى نظر العرب كمطية للشرفاء ولعلية القوم». Horovitz Proper Names... pp 132 - 133 : 48 - 48 Nachdruck.

جاء فى سفر التكوين ١٧: ٤٥ الذى أشار إليه هوروفيتز كلام فرعون ليوسف حيث قال: «قل لإخوتك افعلوا هذا. حمّلوا دوابكم وانطلقوا إلى أرض كنعان»، وقد وردت كلمة دوابكم فى الأصل العبرى: بعيركم.

وعندما نرجع إلى لسان العرب نجد أن كلمة (بعير) تعنى: إما الجمل البازل (القوى) وإما الحمار.

ويذكر ابن منظور نقاشاً دار بين ابن خالويه والشاعر المتنبى بمجلس الأمير سيف الدولة الحمدانى «كان السائل ابن خالويه قائلاً ما المراد من كلمة بعير فى القرآن؟ فاضطرب المتنبى. فقلت المراد بالبعير فى قوله تعالى: ﴿**ولمن جاء به حمل بعير**﴾: الحمار.

وهو أن البعير فى القرآن الحمار، وذلك أن يعقوب وأخوة يوسف عليه السلام، كانوا بأرض كنعان وليس هنا إبل وإنما كانوا يمتارون على الحمير. وقال الله تعالى: **﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾**، وكذلك ذكره مقاتل بن سليمان فى تفسيره. وفى زبور داود: إن البعير مايحمل ويقال يحمِل بالعبرانية بعير. وفى حديث جابر: استغفر لى رسول الله (ﷺ) ليلة البعير خمساً وعشرين مرة، هى الليلة التى اشترى فيها رسول الله (ﷺ) من جابر جمله وهو فى السفر».

ولقد كتب مقاتل بن سليمان المتوفى فى آخر القرن الثانى الهجرى عام ١٥ هـ/ ٧٦٥م، تفسيراً للقرآن قد توجد منه نسخة فى المتحف البريطانى. جاء فيه أن كلمة بعير فى القرآن وردت بمعنى الحمار. كما يذكر لسان العرب بيتا شعرياً لأحد لصوص البادية المشهورين فى عهد عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٦هـ) اسمه يزيد بن الصَّقِّيل العقيليٍّ استخدم فيه لفظ أباعير وهو جمع بعير.

كل هذه الأمثلة تؤكد أن كلمة بعير كلمة عربية وجدت واستعملت قبل الإسلام وكانت شائعة بمعنى الجمل أو الحمار. مافائدة الإدعاء إذن أن محمداً استعارها من سفر التكوين ٧١: ٤٥؟

٣ ـ كلمة بهيمة، وقد وردت فى سورة المائدة الآية الأولى وسورة الحج الآية ٢٨ ـ ٣٤.

يقول هوروفيتز فى كتابه: Proper Names... p 183 : 43 Nachdruck: «إن هذه الكلمة قد تكون مشتقة من الكلمة العبرية "Bêhêmâ"»، ويضيف: «إن هذه الكلمة لم تستعمل على مايبدو فى الشعر الجاهلى».

نرد على هذا بالملاحظات التالية:

أولاً: إن كلمة بهيمة مقرونة دائماً فى القرآن بكلمة (الأنعام). وإن كانت مشتقة من العبرية فذلك يعنى أن القرآن فيه تكرار لا طائل منه. والمراد من كلمة (بهيمة) فى القرآن هو: ذا اللون الواحد الخالص لا تتخلله ألوان أخرى، ويمكن أن يكون هذا اللون أبيض أو أسود.

لكن غالباً ماتطلق هذه الكلمة على الحيوان ذا اللون الأسود (انظر لسان العرب). وقد تستخدم مجازاً حيث يقصد بها حينئذ: الصافى، كما جاءت فى بعض الأحاديث التى ذكرها لسان العرب.

ثانياً: لنفرض أن هذه الكلمة لم تذكر فى الشعر الجاهلى، وهذا ما لم يثبت بصفة قاطعة. ربما أتاح لنا معجم فيشر Fischer فرصة التحقق من ذلك. لولا أنه لم يصدر بسبب تعنت أعضاء مجمع اللغة العربية فى القاهرة.

المهم أن الكلمة وردت عدة مرات فى أحاديث نبوية بمعنى: الصافى ذا اللون الواحد. أى أن الكلمة استعملت دائماً كصفة وليس كاسم.

٤ ـ كلمة (سورة)، وقد جاءت فى سورة التوبة (الآية ٦٤ ـ ٨٦، ١٢٤، ١٢٧) وسورة النور (الآية الأولى)، وسورة غافر (الآية ٢٢).

وقد كان المستشرق نوبلكه Noedelae أول من ادعى فى كتابه (تاريخ القرآن) Geschichte de Qorans, p. 24 - Neue Beitràge, p. 26 أن كلمة (سورة) مشتقة من الكلمة العبرية shûrâ حيث المراد بها: الخط، الصف، الطابور. ولم ترد أبداً بمعنى الفقرة من كتاب. ولهذا نبادر ونقول إن فرضية نوبلكه خاطئة.

أما هيرشفيلد فيقترح فرضية أخرى فى كتابه السابق الذكر (أبحاث جديدة، ص ١١٣) New Researches, note 6, p 113, note 81 مفادها أن كلمة (سورة) ماهى إلا قراءة خاطئة لكلمة أرمية هى Sidrâ.

ويأتى بعده هوروفيتز ليرفض هذه الفرضية جملة وتفصيلاً قائلاً: لايمكن أخذها فى الاعتبار».

أما فقهاء اللغة العرب فلم يتفقوا على أصل كلمة (سورة).

ـ فهناك من يردها إلى سورة المبنى أى بمعنى المنزلة.

ـ وهناك من يقول إن أصلها يعود إلى كلمة السؤر أى بقية الشيء.

- وهناك من يشير إلى أن كلمة (سورة) معناها المرتبة العليا.

لكن كل هذه التفسيرات غير مقنعة وتظل المشكلة مطروحة سواءً لدى المستشرقين أو لدى فقهاء اللغة القدامى.

٥ ـ **مشكلة كلمة (مثانى) تظل هى الأخرى مطروحة:** من المثاني

(أ) ووردت فى سورة الحجر الآية ٨٧: **﴿ولقد آتيناك سبعاً مثاني والقرآن العظيم﴾.**

(ب) وفى سورة الزمر الآية ٢٣: **﴿الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾.**

يتقدم المستشرق مولر فى كتابه «الأنبياء وأوجه مصداقيتهم» D.H. Mueller (Die Prophten und ihre ursprunglischen form, 1, p 42 - 46 note 2) بادعاء فحواه أن المراد من كلمة (مثانى) هو الأساطير وبالتالى المثانى السبع ماهى إلا الأساطير السبع لـ: «موسى، إبراهيم، نوح، صالح، لوط، وشعيب». ويتناسى مولر أن القرآن يحتوى على قصص عدة أنبياء آخرين. فلماذا إذن حصر القصص فى السبع المذكورة؟

ولهذا السبب اعترض نودلكه على هذا الطرح معتنقاً الآراء الشائعة لدى المفسرين العرب. وهى أن (المثانى السبع) هى الآيات السبع من سورة الفاتحة (إضافات وتنقيحات Neue Beitrage, p 261).

أما جيجر Geiger فقد فضل البحث عن أصل كلمة (مثانى) فى الكلمة الآرامية - اليهودية Mathnitha والمقصود بها التقليد أو العرف. لكن هذا الطرح لايضيف شيئاً فيما يتعلق بتفسير عبارة (المثانى السبع)، اللهم إذا رجعنا ثانية إلى رأى مولر الذى سبق تفنيده.

ولم يتفق المفسرون العرب بدورهم على معنى واشتقاق كلمة (مثانى)، ويلخص لسان العرب هذه المسألة كالآتى: «المثانى فى القرآن هى ماثنى مرة بعد مرة. وقيل: فاتحة الكتاب وهى سبع آيات، قيل لها مثانى لأنها يثنى بها فى كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد كل ركعة.

وقيل المثانى فى سور أولها البقرة وآخرها براءة وقيل: ماكان دون المئتين، قال ابن برّيّ: كأن المئتين جعلت مبادىء والتى تليها مثانى، وقيل هى القرآن كله، ويدل على ذلك قول حسان بن ثابت: من للقوافى بعد حسان وابنه؟ ومن للمثانى بعد يزيد بن ثابت؟ وقال أبو عبيد: المثانى من كتاب الله ثلاث أشياء، سمى الله عز وجل القرآن كله مثانى فى قوله عز وجل: ﴿**الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى**﴾ وسمى فاتحة الكتاب مثانى فى قوله: ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن الكريم**﴾. قال وسمى القرآن لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه، ويسمى جميع القرآن مثانى أيضاً لاقتران آية الرحمة بآية العذاب» (لسان العرب، انظر: ثنى).

٤ ـ هاينريش سبيير Heinrich Speyer

لقد تتلمذ هاينريش سبيير على يد جوزيف هوروفيتز. فحمل على عاتقه مهمة إكمال تلك البحوث التى بدأها أستاذه. وخاض بحثاً واسعاً من ٥٠٩ صفحة بعنوان (القصص الإنجيلية فى القرآن) طبع عام ١٩٣١ ثم أعيد طبعه عام ١٩٦٦١. Die Bibilicen Erzàhlung im Qoran, 1er edi 1931, 2eme edi Nachdruck Georg Olms, Hilde-sheim 1961. وراح يعلن عن اكتشاف الأصل اليهودى لقصص الأنبياء التى وردت فى القرآن. فقسم كتابه إلى عدة فصول تناولت هذه الموضوعات على التوالى: بدء الخليقة، آدم، أبناء آدم، نوح، قصة بناء قلعة بابل، إبراهيم، يوسف، موسى، الرسل بعد طالوت، داود وسليمان، الإنجيليون القدامى، الرسل، المثل فى القرآن، المقاطع والإشارات الخاصة بكتب الإنجيل وبالتلمود.. إلخ.

وحيث أنه لايهمنا فى هذا المقام سوى الموضوع الأخير من هذا لكتاب سنركز عليه نقاشنا. وسيظهر جلياً بعد ذلك مدى بعده عن الحقيقة وغرقه فى المغالاة وضعف بصيرته تماماً مثلما هو الحال بالنسبة لهارفيج هيرشفيلد.

أولاً: ﴿مثل الجنتين﴾ الذى جاء فى سورة الكهف، الآيات من ٣٢ إلى ٤٣.

﴿واضرب لهم مَثَلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين اتت أكُلَها ولم تظلم منه شيئاً

وفجّرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددتُ إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً * قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً * لكنّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً * ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً * فعسى ربى أن يُؤْتيَنِ خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً * وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾.

يؤكد سبير أنه عثر على أصل هذا المثل فى جزء من كتاب التلمود المتعلق بسفر اللاويين السفر الثالث من العهد القديم.

ولنثبت أنه ليس هناك علاقة بين هذا النص القرآنى والميدراش المذكور نقدم لكم النص الكامل لهذا الأخير كما جاء فى الترجمة الإنجليزية Midrash Rabbah Leviticus, tr par Judah J. Slotki. London, Soncino Press, 1951, pp 293 - 294. وملخصه باللغة العربية: الربىّ عزريا باسم ر. جودا ابن سيمسون قال يمكن مقارنة هذا بذلك الملك الذى امتلك بستاناً يتخلله صف من شجر التين وصف من العنب وصف من الرمان وصف من التفاح. فأجره لشخص ورحل. بعد زمن عاد الملك ليزور بستانه ويفرح بما طرحه من ثمار فوجده مكسواً بالأشواك..

أحضر مقصلة ليزيل كل هذا. وإذ هو كذلك وجد وردة وردية اللون. شم رائحتها فهدىء مزاجه. وقال الملك «سينجو البستان بفضل هذه الوردة» مثلما سينجو العالم كله بفضل التوراة.

بعد ٢٦ جيلاً نظر القديس إلى عالمه ليرى ما طرحه من ثمار فلم يجد إلا ماءً فى ماء. جيل إينوش Enosh كان ماءً فى ماء وجيل الطوفان كان ماءً فى ماء وجيل الشتات كان ماءً فى ماء.

فأحضر مقصلة لقطعها كما قيل «الربّ بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً إلى الأبد» فرأى وردة وردية واحدة: إسرائيل أخذها وشم رائحتها فأعطى الوصايا العشر وهدىء مزاجه لما قالوا «كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له» الخروج ٢٤: ٧. فرد الرب قائلاً إن البستان سينجو. ومن أجل التوراة وإسرائيل سينجو العالم.

يبدو واضحاً من خلال هذا النص انه لا علاقة بينه وبين المثل القرآنى سواء من حيث التعبير أو حتى من حيث الحكمة التى يقترحها.

والقسم المشترك الوحيد بينهما هو كلمة الجنة. ومن الغباء أن يعتقد المرء أن محمد قد استوحى من نص يؤكد «أن خلاص العالم سيتحقق بفضل التوراة وإسرائيل». والنص القرآنى يؤكد من ناحيته على فكرة ثقة المؤمن اللامحدودة فى القوة الإلهية ويدعو إلى التواضع والتسليم بإرادة الله. أما الميدراش اليهودى فيشيد بتعالى شعب إسرائيل مدعياً أن هذا الأخير سينقذ شعوب العالم!

أى تذبذب فى البصيرة دفع هاينريش سببير إلى إيجاد تشابه والإعلان عن اكتشاف سرقة محمد للنص اليهودى!

كل مايمكن قوله هو أن سببير يعانى هو الآخر مثل هرفيج هيرشفيلد من حالة نفسية مرضية. وبما أنه اتبع نفس المنهج فى مناقشته للمثل فى القرآن (ص ٤٢٦ ـ ٤٣٨)، فإننا لن نتوقف عند هذه المسألة. ويكفى ماسجلناه عليه من تفاهات.

ولم يكن فرانز بهل Franz Buhl أوفر حظاً عندما رجع إلى إنجيل لوقا محاولاً الربط بينه وبين المثل القرآنى.

لنرى ماذا يقول إنجيل لوقا فى الإصحاح الثانى عشر الذى أشار إليه بهل؟

«وضرب له مثلاً قائلاً. إنسان غنى اخضبت كورته. ففكر فى نفسه قائلاً ماذا أعمل لأن ليس لى موضوع أجمع فيه أثمارى. وقال أعمل هذا أهدم مخازنى وابنى أعظم وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى. وأقول لنفسى يانفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريحى وكلى واشربى وافرحى. فقال له ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التى أعددتها لمن تكون. هكذا الذى يكنز لنفسه وليس هو غنياً لله».

لم يذكر هذا المثل من الإنجيل كلمة جنة على الإطلاق! أما مغزاه فيتضح فى الآية الأخيرة حيث تكمن الحكمة فى الابتعاد عن البخل وعن تكديس الأموال لصالح الإحسان وعمل الخير.

من الواضح أن النصين القرآنى والإنجيلى مختلفان كل الاختلاف.

ويبقى السؤال المحيّر: لماذا يصر هيرشفيلد وسبيير وبهل وأمثالهم على البحث عن أوجه التشابه بين القرآن والنصوص الأخرى؟ هل يتصورون أنهم يخدعون أحداً بمثل هذه الخزعبلات؟

ثانياً: ورغم هذا سنقدم بعض الأمثلة الإضافية على افتراءات هاينريش سبيير الذى يؤكد فى موضع آخر على الأصول الإنجيلية للآية (١٩) من سورة فاطر ﴿**وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء والأموات**﴾. وذهب إلى القول بأن هذه الآية مقتبسة من ٩ آيات من العهد القديم وخمسة من العهد الجديد. حيث لم كلمة من كل آية من هذه الآيات المتباعدة. ثم قام بجمع كل الشتات الذى حصل عليه ليؤكد أنه اكتشف مصدر الآيتين القرآنيتين.

ومثل ماقام به سبيير كمثل من يقوم بالرجوع إلى معجم لغوى للبحث والعثور على جمل صاغها أديب فى كتابه.

فماذا تقول الآيات الإنجيلية التى أشار إليها؟

- **سفر التكوين، الإصحاح ٨، الآية ٢٢**: «مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء، ونهار وليل لاتزال».

- **سفر الخروج، الإصحاح ٤، الآية ١١**: «فقال له الرب من صنع الإنسان فما أومن يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب».

- **سفر المزامير، الإصحاح ١٢، الآية ٤**: «نور أشرف فى الظلمة للمستقيمين. هو حنّان ورحيم وصديق».

ـ سفر المزامير، الإصحاح ١٥، الآية ١٧ ـ ١٨: «ليس الأموات يسبّحون الربّ ولا من ينحدر إلى الأرض السكوت (١٨) أما نحن فنبارك من الأرض وإلى الدهر».

ـ سفر يوئيل، الإصحاح الثانى، الآية ٣١: «تتحول الشمس إلى الظلمة والقمر إلى دم قبل أن يجيىء يوم الرب العظيم المخوف».

ـ سفر إشَعْيَاء، الإصحاح ٥، الآية ٢٠: «ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً».

جمع سبيير كلمات متناثرة من هذه المقاطع التسعة وهى: الظلمات، النور، الأموات، الأحياء. واعتقد أنه توصل إلى أصل الآية ١٩ من سورة فاطر، ياله من غباء ويالها من إهانة موجعة للعلم.

أما فيما يتعلق بسورة الزمر الآية ٢٩ **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾**. يقترح علينا سبيير العودة إلى المشنا آبوتْ (الآباء) (Abôt 11, 13, 14) للبحث عن أصل هذه الآيات. ويقول مقطع المشنا المشار إليه «اذهبوا وابحثوا عن السبيل الصحيح الذى يتبعه الرجل...! بوشنا قال رفيق طيب فقال يومتى جار طيب. فقال لهم اذهبوا وابحثوا عن السبيل السيىء الذى منه على الرجل أن يبتعد...! فقال يشوع رفيق سيىء. فقال يوسى جار سيىء».

لسنا ندرى كيف استطاع سبيير أن يجد أية مساحة مشتركة بين النصين القرآنى والإنجيلى؟

المراد من المثل القرآنى هو أن الرجل الذى يعبد عدة آلهة متصارعة لايمكن أن يقارن برجل يعبد إلهاً واحداً قوياً. «لا علاقة بين الرجلين» كما يشرح بلاشير ذلك فى ترجمته للقرآن. (باريس ١٩٥٧، ص ٤٩٢). Blachère trad du Coran, Paris 1957, p 492 note

المثل القرآنى يتناول إذن الفرق الشاسع بين مؤمن بإله واحد وبين المشرك.

أما المقطع المذكور من الميشنا فيتناول جانباً أخلاقياً وليس له علاقة بالشريعة. ويبدو أن سبيير لم يفهم المثل القرآنى. هذا الحكم ينطبق على كل ماجاء به سبيير فى هذا الفصل (صفحات ٤٢٦ ـ ٤٣٨).

ثالثاً ـ خاتم النبيين:

لقد كانت هذه العبارة التى جاءت فى سورة الأحزاب، الآية ٤٠ **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾** هى الأخرى محل مزايدات من طرف المستشرقين.

حيث ذهب هيرشفيلد إلى القول بأن عبارة (خاتم النبيين) مقتبسة من سفر حجى الإصحاح الثانى الآية ٢٣، الذى جاء فيه «فى ذلك اليوم يقول رب الجنود آخذك يازربّابل عبدى ابن سألتيئيل يقول الرب وأجعلك كخاتم لأنى قد اخترتك يقول رب الجنود».

ويضيف هيرشفيلد أن كلمة خاتم وردت كذلك فى سفر الملوك الأول فى الإصحاح ٢١ الآية ٨ «ثم كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بخاتمه» أى بمعنى الختم. أما فى سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٨ فجاءت بمعنى الختم المعلق بعناية فى الصدر، وذكرت كذلك فى سفر إرميا الإصحاح ٢٢ الآية ٢٤ بمعنى الختم الذى يحمل فى اليد من شدة الحرص عليه.

«حتى أنا، يقول الرب ولو كان كنياهو بن يهو ياقيم ملك يهوذا خاتماً على يدى اليمنى فإنى من هناك أنزعك» وهو نفس المدلول الذى ورد فى سفر حجى. فالمقصود بكلمة خاتم هو أن الله قال لحجى أنه اختار زربّابل كخادم قيّم.

ويشرح هوروفيتز عبارة (خاتم النبيين) فى كتابه «دراسات قرآنية» Koranisch Untersuchungen على أنها الختم الذى يؤكد صحة وثيقة أو مخطوطة. وطبقاً لهذا التفسير فإن مهمة محمد قد انحصرت فى التأكيد، وكأنه موثق الشهر العقارى، على صحة وحقيقة الوحى الذى نزل على الأنبياء الذين سبقوه!

وفى هذه الحالة نتساءل: كيف كان لمحمد أن يؤكد على صحة نبوة رسل مختلفين وعلى صحة كتب مقدسة متعارضة وأحياناً مزورة؟! لذا لايمكن الاعتداد بهذا الشرح.

والشرح الوحيد المقبول والمتعارف عليه فى اللغة العربية هو أن كلمة (خاتم) تحمل معنى: الأخير ويقال خاتِم أو خاتَم القوم أى آخرهم. وخاتم أى شىء هو حالته الأخيرة. (انظر لسان العرب فى خاتم). والخاتم هو أحد ألقاب محمد، أى أنه آخر الأنبياء الذين أرسلوا للناس سواء فى الماضى أو المستقبل.

وهذا المعنى أوضح وأرسخ ويظهر ذلك من خلال سورة آل عمران، الآية ١٩ ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، أو الآية ٨٥ **﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**.

والمنطق يقول إن محمد يعتبر نفسه آخر الأنبياء طالما أن الإسلام كما يقول عز جلاله هو الدين الحق. كما تؤكد على هذا عدة أحاديث نبوية، حيث جاء على لسان النبى محمد: «أنا خاتم النبيين» (انظر البخارى، مناقب ١٨ . ومسلم، فضائل ٢٢١ . داود: فتان. والترمذى، فتان Fitan ٤٣ . والدرامى، مقدمة ٨. وابن حنبل، الجزء الثانى ٣٩٨ ـ ٤١٢، الجزء الثالث ٧٩، ٢٤٨، والجزء الرابع ٨١، ٨٤، ١٢٧، ١٢٨، والجزء الخامس ٢٧٨). وأكثر الأحاديث شيوعاً حول هذا الموضوع هو ذلك الذى يقول فيه النبى محمد: «وأنا موضع تلك اللبنة».

فلم يكن لمحمد أدنى شك فى أنه آخر الأنبياء وأنه لن يأتى بعده نبى. حيث أن بناء النبوة قد اكتمل به.

الفصل الثالث

معنى كلمة «فرقان»

انصب اهتمام عدد من المستعربين المتحرشين بالإسلام على كلمة «فرقان»، فبذلوا جهوداً مضنية بهدف إرجاعها إلى أصول يهودية - مسيحية.

ولقد ذكرت هذه الكلمة فى الآيات الست التالية:

١ - سورة البقرة، الآية ٥٣:

﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾.

٢ - سورة البقرة، الآية ١٨٥:

﴿شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾.

٣ - سورة آل عمران، الآية ٣ - ٤:

﴿وانزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾.

٤ - سورة الأنفال، الآية ٤١:

﴿.. إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾.

٥ - سورة الأنبياء، الآية ٤٨:

﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين﴾.

٦ - سورة الفرقان، الآية ١:

﴿تبارك الذى انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

ومن بين هؤلاء الذين تعرضوا لهذا اللفظ نذكر:

- أ. جيجر (ماذا أخذ محمد من اليهود؟ ١٩٠٢). A. Geiger, Was hat Moham-mead aus dem Judeutum au fgenommen, 1902, p 99 sqq.

- هـ. هيرشفيلد (بحوث جديدة فى القرآن). H. Hirschfeld, New Researches into the Composition and exegesis of the Qoran, 1902, 68.

- ج. هوروفيتز (بحوث قرآنية) ١٩٢٦، ص ٧٦ ـ ٧٧. J. Horovitz, Koranische un-tersuchungen, 1926, p 76 - 77.

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المستشرقين الثلاثة من الديانة اليهودية. وقد تصوروا كلهم أن كلمة «**فرقان**»، ماهى إلا كلمة عبرية، قد تم تعريبها؛ حيث كانت فى الأصل «بيركى» "Pirké". ويشير مرجليوث D.S. Margouliou فى موسوعة «الدين والأخلاق». (Encyclo-pedia Of Religion and Ethics) قائلاً إن الكلمة الأصلية هى بيركى أبوت Pirké Abot. ونحن نعلم أن كلمة Pirké Abot فصل الأباء "chapitre des Péres" تطلق على « ذلك النص فى الميشنا أين دونت والأحكام الدينية والأخلاقية التى نص عليها حكماء ورجال دين المعبد اليهودى فى زمن سيمون العادل "Siméon le Just" (حوالى ٣٣٠ ق.م) إلى غاية كتابة الميشنا (٢٢٠ م)».

- إبراهيم المالح - Abraham Elmaleh, Nouveau dictionnaire complet hébreu - français, sv.

وكتاب المشنا المذكور يتكون من خمسة فصول، حيث يختلف الفصل الأخير من حيث شكله ومضمونه. كما أن الأحكام التى تضمنها (فيما عدا الفقرات الأربع الأخيرة) مجهولة الكاتب على عكس الفصول الأربعة الأخرى. «أغلب الظن أن هذا النص قد تم التمسك به فى اليهودية - ويبدو ذلك جلياً - فى كتاب الصلوات القديم، كجزء من خدمة قداس يوم السبت، خلال أشهر الصيف». (الموسوعة اليهودية، المجلد الأول، ص ٨١ ـ ٨٢، نيويورك ولندن ١٩٠١).

وطبقاً لهذه المعلومات نصل إلى نتيجة هى أن لفظ **«فرقان»** لايمكن أن ينطبق على هذا النص من المشنا.

أولاً: لأن مؤلفى هذه الأحكام مذكورين صراحة، وبالتالى لم يكن موسى أو هارون من بين واضعى هذا النص. فكيف الزعم إذن أن محمداً قد نسبه لموسى أو هارون؟

ثانياً: يستنتج من محتوى هذا النص أنه ليس نصاً مقدساً وبالتالى لم يذهب أحد إلى ذلك.

ثالثاً: أن هوروفيتز يعترف بنفسه أن كلمة بيركى Pirké تنطبق على الفصل الأول والرابع ولا تنطبق على الفصول الثلاث المتبقية. أما الذين يدعون ويزعمون أن كلمة **«فرقان»** تعنى Pirké Abot فما هم إلا ضحايا غباء لانظير له مرده إلى تهيؤات مرضية تجعلهم يتصورون أنهم عثروا أينما ذهبوا على بصمات يهودية أو عبرية!

وعلى جانب آخر نجد أن عدداً كبيراً من المستعربين المسيحيين قد حللوا مصدر كلمة **«فرقان»**. من بينهم:

- نولدكه (إسهامات جديدة فى العلوم اللغوية السامية) ١٩١٠، ص ١٠ ومابعدها.

Noldeke (Neue Beitràge zur sem´tischen sprachwisseuchafr, 1910, p. 10 sq).

- ليدسبارسكى M. Lidsbarski (in ZS, 1922, 90 - 2)

- شفالى Fr. Schwaly (in ZDMG, 1898, p 134 sq, et Geschichte des Qorâns, p 34, n 1).

- فنسنك (دائرة المعارف الإسلامية) الطبعة الأولى. A.G. Wensinch (Ency. Islam, 1re éd. sv).

- بيل (أصول الإسلام فى بيئته المسيحية) ١٩٢٦. R. Bell (The Origin of Islam in its Christian enirronment, 1926, pp. 118 - 25).

وكذلك (مدخل إلى القرآن) ١٩٣٨، ص ٢٢٥ - ٢٢٩. (Introduction to the Qur'ân, Baroda 1938, pp 225 - 229).

يجمع كل هؤلاء فى تفسيرهم لكلمة «**فرقان**» على انها تعريب للكلمة السريانية فرقانا Furqânâ أو للكلمة اليهودية - الآرامية **فرقان** Furqân، والمراد منها: الإنقاذ Salvation بالمعنى المسيحى للكلمة.

واعتماداً على هذا التفسير ترجم بلاشير Blachère كلمة **فرقان** بـ Slavation فى الترجمة التى وضعها للقرآن إلى اللغة الفرنسية.

أما رودى باريت Rudi Paret فقد استعمل فى ترجمته للقرآن (شتوتجارت ١٩٦٢) (Der Koran, Suttgart) كلمة Rettung كترجمة لكلمة **فرقان** كاتباً ومعلقاً (al furqân ist mehrdeutig) أى لفظ القرآن مبهم. وكان بمعنى كلمة فرقان التى وردت فى سورة الفرقان، الآية ١.

ويعطى ريتشارد بيل معلقاً على كلمة **فرقان** فى كتابه (مدخل إلى القرآن) ادنبرج ١٩٥٣، ص ١٣٦ - ١٣٨. R. Bell (Introduction to the Qur'ân, pp. 136 - 138, Edinburg, 1953). الذى صدر بعد وفاته، تفسيراً يمزج فيه بين التفسيرالذى يجمع عليه المفسرون المسلمون وبين تفسير المستشرقين المسحيين الذين يزعمون أن لفظ «**فرقان**» يرجع إلى الكلمة السريانية فرقانا Furqânâ.

ونتيجة لهذا المزج جاء تحليله غامضاً حيث يقول: «إن الكلمة قد تم اشتقاقها من المصادر المسيحية، لكن محمد لابد وأنه قد مزجها باللفظ العربى (فرق) لتسهيل التفريق مابين أتباعه وبين غير المؤمنين. هذا المزج أيضاً، مرتبط بحالة موسى، مع الوضع فى الاعتبار التميز فى الوحى. فاليهود لديهم التوراة والمسيحيين لديهم الإنجيل، بينما المسلمين لديهم الآن القرآن ككتاب مقدس». ويفسر الاية ٤١ من السورة الثامنة كالآتى «إن انتصار غزوة بدر، لم يكن فقط بمثابة نجاة أو إنقاذ لتلك الفئة الصغيرة من المسلمين التى خرجت مع محمد، لاعتراض القافلة، فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع جيش غير المؤمنين ولكنها كانت بمثابة التفريق النهائى، مابين أتباع محمد وغير المؤمنين من أهل مكة، إذ بعد سفك الدماء الذى حدث لم يعد هناك مكان سوى للعداء».

الغريب فى هذا التفسير هو الإدعاء بأن محمد قد استعار الكلمة السريانية بوركانا

Purkânâ وأنه غير معناها حيث أعطاها معنى آخر استوحاه هذه المرة من الكلمة العربية فرق.

والسؤال الآن هو لماذا لم يلجأ مباشرة للمصدر العربى طالما أنه يصبو إليه فى الأخير؟

ثم هل كانت كلمة Purqânâ السريانية منتشرة أو معروفة فى البيئة التى كان يعيش فيها محمد حتى يلجأ هذا الأخير لاستعارتها؟ هل هناك وثيقة تدل على تداول هذه الكلمة آنذاك حول محمد؟

إن هذه الأسباب كافية لدحض أطروحة المستشرق بيل Bell ولإثبات خطأ مزاعم الذين تبنوا نفس الآراء. (م. وات: محمد فى المدينة، ورودى باريت: موسوعة الإسلام).
(M. Watt: Muhammad at Medina, p 16 et Rudi Paret: Encycl. de L'Islam, 2em éd, sv).

تعليقنا

أولاً: أنه من الغباء نسبة كلمة «**فرقان**» إلى الكلمة العبرية Pirkè التى تعنى فصول.
ثانياً، أن الآراء التى ترد كلمة «**فرقان**» إلى الكلمة السريانية بوركانا Purkânâ: الإنقاذ، تعد هى الأخرى ضرباً من الغباء.

يبقى أن نتبنى المعنى والاشتقاق التى اتفق عليه مفسروا القرآن وعلماء فقه اللغة العرب والمسلمون، وقد لخص كازيميرسكى بعد إطلاعه على المعاجم العربية آرائهم كالآتى:

● **فرقان:**

١ ـ مصدر الفعل: فرق.

٢ ـ كل مايدل على التفريق، الفرق بين الخير والشر، بين المشروع واللامشروع. ويوم **الفرقان** هو يوم التمييز، إنه معركة بدر، أول انتصار لمحمد على الكفار.

٣ ـ أى كتاب مقدس (لأهل الكتاب) مثل الإنجيل وخاصة القرآن.

واستناداً على هذا نقترح التفسير الآتى:

أن **فرقان** مصدر الفعل فرق معناه: التمييز؛ بمعنى التمييز بين الخير والشر، بين المشروع واللامشروع. وبالقياس نجد أن كلمة **فرقان** تدل على معيار التمييز بين الخير والشر إلخ... وأخيراً الكتاب المقدس الذى يعرض هذا المعيار ويعبر عنه.

لنطبق إذن هذا التفسير على الآيات القرآنية الست، سنجد الآتى:

أولاً: فى الآيات: ٥٣ من سورة البقرة و٤٨ من سورة الأنبياء، تدل كلمة **فرقان** على التمييز بين الخير والشر، بين الحلال والحرام.

ثانياً: أن المراد من كلمة **فرقان** فى الآيتين ٤ من سورة آل عمران والآية ١ من سورة **الفرقان** هو القرآن.

ثالثاً: والمقصور منها فى الآيتين ١٨٥ من سورة البقرة و٤١ من سورة الأنفال التمييز بين الخير والشر وبين الحق والباطل فى الدين.

بالتالى نرفض أن يعطى لهذه الكلمة تفسيراً من نوع الإنقاذ Salvation أو مايعادلها باللغات الأخرى (مثل Rettung بالألمانية.. إلخ....).

الفصل الرابع

مزاعم مرجليوث الغريبة

ينحدر ديفيد صموئيل مرجليوث Daved Samuel Margouliouth (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠) الذى تشير أسمائه الثلاثة على أصوله اليهودية الخالصة من أسرة يهودية.

وينطق اسمه بالعبرية الدارجة مرجليوث، الذى يكتب بطرق عديدة: مرجالت ، مرجليوث (Margulies, Margolies, Margolioth, Margolit, Mirgolit)؛ أى تكلم. ومن أقدم أعضاء عائلته المعروفين نذكر يعقوب فون رينسبورج Jacob Van Regensburg (المتوفى مابين ١٤٩٩ و١٥٢٢) الذى كان حاخام رينسبورج، حالياً راتيسبون Ratisbone فى ألمانيا. وعين ابنه صموئيل زعيماً للمجمع اليهودى فى بولونيا من قبل سيجسمنود الأول Sigsmund I.

أما ديفيد صموئيل مارجليوث فقد ولد عام ١٨٥٨، وكان الابن البكر لحزقيال مرجليوث الذى اعتنق المسيحية وصار مبشراً مسيحياً.

اعتنق ديفيد هو الآخر المسيحية مثل والده وعمد قساً عام ١٨٩٩. لكنه ظل فى أعماق قلبه ونفسه يهودياً، ولهذا كرس نفسه للدراسات اليهودية. من بين هذه الدراسات:

١ ـ شرح كتاب دانيال، لمؤلفه يافث بن على، نشره وترجمه مرجليوث ١٨٩٩.

A. Commentary on the Book of Daniel by Jephet Ibn Ali... edited and translated by D.S. Margouliouth, 1899.

٢ ـ مكانة الإكليرلية فى الأدب السامى، عام ١٨٩٠. The Place of Ecclesiastisus in Semitic literature, 1890.

٣ ـ أصل «الأصل العبرى» للإكليروس، عام ١٨٩٩. The Origin of the "Hebrew Original" of Ecclesiasticus, 1899.

٤ ـ العلاقات بين العرب والإسرائيليين قبل ظهور الإسلام، ١٩٢٤. Relation between Arabs and Israelites frior to the rise of Islam, Schweich lectures, 1921, published 1924.

لقد جند صموئيل مارجليوث نفسه طول حياته عدواً عنيداً ضد الإسلام. ودفعه تعصبه العنيف إلى عرض المزاعم شديدة الغرابة لم يكن القصد منها سوى الهجوم على الرسول محمد والحط من رسالته.

وسوف نكشف هنا بعض هذه المزاعم التى رفض قبولها مستشرقون آخرون.

أولاً: اشتقاق كلمة «مسلم»:

بادر مرجليوث بالإدعاء أن كلمة «مسلم» كانت تطلق سابقاً على مريدى مسيلمة الذى ادعى النبوة. المعروف باسم مسيلمة الكذاب. وما أن نشر مرجليوث هذا الرأى الخيالى فى جريدة المجتمع الآسيوى الملكى، لندن، ص ٧٦٤ ومابعدها. Journal of the Royal Asiatic Society (JRAS) Lodon, pp 467, sqq. وعلى الفور رد عليه المستعرب الإنجليزى المشهور شارلز ج. ليل Charles J. Lyall، رداً لاذعاً على صفحات نفس المجلة عام ١٩٠٣، ص ٧٧١. وسدد له ضربة لم يفق منها، لدرجة أن مرجليوث لم يرجع أبداً للإدلاء بذلك الرأى فى أعماله اللاحقة.

وأتساءل كيف وقع مرجليوث وهو فى سن الخمس والأربعين فى هذا الخطأ الفاضح؟ ألم يسبق له أن قرأ القرآن أو السيرة أو أى كتاب عن تاريخ الإسلام؟ وكيف يشتق اسم الفاعل «مسلم» من اسم مسيلمة؟ فلو كانت لديه أدنى المعرفة باللغة العربية لتنبه إلى أن النسبة إلى مسيلمة تكون مسيلمى لا مسلم. لكن للأسف فإن تعصبه أدى إلى عماء بصيرته.

ثانياً: «فرقان» و«بيركى ابوت Pirkè Abbot»:

إننا تعرضنا للرأى الخاطىء الذى يجمع بين المصطلحين والذى تبناه مرجليوث كما تبناه من قبله هرفيج هيرشفيلد فى كتابه (بحوث جديدة فى فهم وتفسير القرآن، لندن ١٩٠٢). New Researches into the composition and Exegesis of the Qorân, London, 1902

حيث أكد أن كلمة «فرقان» ماهى إلا تعريب للكلمة بيركى Pirkè، التى تطلق على مختارات من الأحكام وصفها حاخامات يهود.

ثالثاً: حول إبراهيم:

وفى مقالته عن محمد فى موسوعة الدين والأخلاق، أدنبرج ١٩١٥، المجد الثامن، ص ٨٧١ ـ ٨٨٠. Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol. 8. pp 871 - 880, Edinburgh 1915

قدم مارجوليوث مجموعة من المزاعم المغلوطة دون أن يهتم بالتوثيق التاريخى. حيث يقول فيما يتعلق بإبراهيم: «أن من المحتمل أن يكون اسم إبراهيم كان غير متداول وغير معروف فى مكة إلى أن أدخله محمد». فولج بإدعائه هذا فى مسألة لاتحتمل الجدال. حيث أن أهل الكتاب، أى اليهود والمسيحيين، كانوا متفقين على العلاقة بين إبراهيم وقبائل شمال الجزيرة العربية.

وبما أن اليهود والمسيحيين كانوا يعيشون فى مكة قبل الإسلام، وهذا باعتراف مرجليوث نفسه، فكيف إذن لم يعرف هؤلاء بوجود اسم إبراهيم الذى كان متداولاً فى مكة قبل ظهور محمد؟ ولماذا ينتظرون مجىء محمد للتعريف بإبراهيم؟ أظن أن سخافة رأى مرجليوث واضحة للعيان.

ويدعى مرجليوث من جهة أخرى أن ملة إبراهيم قد ظهرت فى حران Harrân لدى أهل سبأ. لذلك يواصل قائلاً: «يبدو أن الحرانيين قد سموا الأحناف أى المشركين، ومن طرف جيرانهم المسيحيين. ومن الممكن أن تكون هذه التسمية هى أصل كلمة حنيف التى وردت فى القرآن على أتباع ملة إبراهيم وهى مرادفة لكلمة مسلم».

نحن أمام زعمين لا أساس لهما وهما أنه عبادة إبراهيم كانت موجودة فى حران، وأن المسيحيين أطلقوا على الحرانيين اسم الحنفيين.

ولقد عرض مرجليوث لهذين الزعمين دون الاستناد إى أى مصدر يذكر. وليس هناك أى مصدر قد وافق على أى من الزعمين اللذين اختلقهما خيال مرجليوث المختل.

رابعاً: صلاة المسلمين أثناء الحرب وتاريخ إقرار الفاتحة:

يدعى مرجليوث أن «طقوس الصلاة (الإسلامية) مرتبطة بطقوس الحرب. وإن لم يكن المسلمون بحاجة إليها لولا أن أقامها المقاتلون وقت الحرب» (ERE, Ibidem, p 875b). إن هذا الإدعاء فى الحقيقة مثير للضحك!

ويزيد مرجليوث الطين بلة حين يستنتج أن الفاتحة التى تتلى أثناء الصلوات سابقة للهجرة حيث أن محمد لم يكوّن جيشاً إلا وهو فى المدينة.

هذا الإدعاء صبيانى وسخيف؛ صبيانى لأنه يؤكد أن الصلاة فرضت على المسلمين كعمل عسكرى. وهذا ما لا يقبله العقل. وسخيف لأن القول بأن الفاتحة سورة مدنية مؤداه أن محمد وأتباعه لم يكونوا يؤدون الصلاة قبل ذلك. مع أن الكتب والأحاديث الصحاح تؤكد على أن الصلاة غير جائزة دون فاتحة. (انظر البخارى، باب الآثان al athân، رقم ٩٣. والترمذى: باب الصلاة، رقم ٦٣. والنسائى: افتتاح، رقم ٢٤. وابن ماجه: كتاب الصلاح، باب افتتاح القراءة).

وعلى هذا الأساس يؤكد كل المحققين المسلمين على أن الفاتحة من أقدم السور القرآنية، وهى أم الكتاب (الدياربكرى: الخامس. والسيوطى: الإتقان، ص ٥٤.. إلخ).

لكن مرجليوث يستنتج أن الفاتحة لم تنزل إلا فى وقت متأخر. ويعتمد فى ذلك على تفسير خاطىء للآية الأخيرة من هذه السورة مفاده أن المغضوب عليهم هم: اليهود، أما الضالين فهم المسيحيين. «وبما أن معارك محمد مع اليهود لم تبدأ إلا بعد الهجرة ومعاركه مع المسيحيين بعد ذلك بسنوات فإن الفاتحة تعود إلى مابعد الهجرة» (المرجع نفسه، ص ٨٧٥).

وكما يلاحظ بلاشير Blachèr (القرآن Le Coran, tr. fr. p 29 m. 7)، فإن «هذا التفسير خاطىء نظراً للنفى الذى ورد قبل اللفظ الثانى. إن الفكرة تنطبق فى حقيقة الأمر على الكفار بصفة عامة».

ويؤكد رودى باريت Rudi Paret من جهته أن يصعب تبرير هذا التفسير الذى يعتمد على أن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الضالين هم المسيحيين.

أما س. د. جواتين S.D. Goitein فيذكر أن الفاتحة قد استعملت في الصلاة قبل الهجرة بكثير. «الصلاة في الإسلام» دراسات في التاريخ، ليدن ١٩٦٦، ص ٨٢ ـ ٨٤.
(Prayer in Islam, Studies in Islamics History and Institutions, Leiden, 1966, pp. 82 - 84).

ونشير هنا إيضاً إلى مايذهب إليه المستشرق جولدتسيهر Goldziher من أن الفاتحة هي المقابل للصلوات الربانية Pater Noster.

وبالطبع فإن هذا التفسير خاطيء حيث لاتوجد أي علاقة بين الاثنين. بل وأقول إنهما متعارضين:

١ ـ الفاتحة تؤكد على وحدة الله، بينما تؤكد الصلوات الربانية على أبوية الله.

٢ ـ تؤكد الفاتحة على سيادة الله على الكون وعلى يوم القيامة، بينما تكتفي الصلوات الربانية بتمجيد اسم الله والتوسل لمجيء ملكه.

٣ ـ تعبر الفاتحة عن استسلام الإنسان واحتياجه لمساعدة الله. أما الصلوات الربانية فتطلب من الله أن يمنح الإنسان قوته وأن يغفر له ذنوبه وأن يجنبه من الوقوع في الغواية.

ياله من تكبر، يالها من عجرفة! كيف يُخَاطَب الله مخاطبة الند للند! وكيف يؤمر هكذا بإبعاد عباده من الغواية! هل هذه صلاة أم أمر؟!

من البديهي إذن أن مكنون الفاتحة متعارض كل التعارض مع فحوى الصلوات الربانية المسيحية. كيف يجرؤ إذن جولد تسيهر (وغيره ممن ساروا على خطاه دون أدنى تفكير مثلما هو حال بلاشير على التأكيد بأن الفاتحة هي مايمكن تسميته بالصلوات الربانية الإسلامية؟!

أما مرجليوث فيومىء بمكر قائلاً: «الصلاة التي تتطابق مع الصلوات الربانية واسمها الفاتحة» (المرجع السابق، ص ٨٧٥ ب).

خامساً: الصيام وتحريم الخمور:

هاجس الانضباط العسكرى جعل مرجليوث يفسر كل مؤسسات ومحرمات الإسلام من خلاله.

فهو يرى أن صيام شهر رمضان «تدريب عسكرى، فمن ناحية المعروف أن رجال الحرب يتحملون الحرمان وأنهم دربوا على وصل الليل بالنهار من ناحية أخرى».

فإن كان الأمر كذلك وإن كان هذا هو السبب وراء فرض الصيام نتساءل لماذا فرض الصيام على غير المحاربين مثل النساء وصغار السن؟

ويعود مرجليوث ليؤكد الفكرة فى تفسير تحريم الخمور (فى سورة البقرة: الآية ٢١٩، وسورة المائدة: الآية ٩٠): «يبدو أن هذا التحريم مرتبط بالانضباط العسكرى. وهناك ربما شىء من الحقيقة فى فكرة بالجراف O.W. Palgrave (Central and Eastern Arabia, London, 1865, 1, p 248) من أن هذا التحريم قد شرع بالتحديد ضد المسيحية» (نفس المرجع السابق).

لكن هذين الرأيين خاطئين. إذ لايأخذان فى الاعتبار التطور التدريجى لتحريم الخمر وظروف هذا التحريم المنصوص عليهم فى تفاسير القرآن وفى بعض كتب الفقه، حيث لم يدخل فى الحسبان مسألة الانضباط العسكرى ولا معارضة المسيحية.

سادساً: التحريم الخاص بالأكل:

ويؤكد مرجليوث فى هذا المجال أن محمد «بدلاً من أن يضع نظاماً للمأكولات المحرمة، وهو النظام الذى يشغل حيزاً كبيراً فى قانون موسى. لجأ إلى استبقاء الحد الأدنى مما أقره مجمع القدس والمنصوص عليه فى الأصحاح ١٥ مع تحريم لحم الخنزير وهى فكرة استحدثها على تلك التشريعات». (نفس المرجع، ص ٦ ـ ٨٧٥).

مما لاشك فيه أن هذا الإدعاء خاطىء. حيث يقول نص أعمال الرسل من العهد الجديد، الأصحاح ١٥ الآية ٢٠ حول قرار مجمع القدس الذى حضره بولس وبرنابا من

جهة والرسل المتواجدين فى القدس من جهة أخرى «أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم».

حتى لو التزمنا بالمعنى الحرفى لهذا النص (لأن هناك من يفسر كلمة: الدم على أنها القتل). (انظر العهد الجديد، ترجمة Olcuménique، باريس ١٩٧٣، ص ٤٠٣).

(Nouveau Testament, tr Olcuménique, Paris 1973, p 403, n.v.).

فإننا نجد أن التحريم اقتصر على المخنوق ودم الحيوانات. أما أن يكون النص الأصلى لأعمال الرسل قد نص على لحم الخنزير، فهذا إدعاء اختلقه مرجليوث لخدمة قضيته والقضية اليهودية عموماً.

وحتى هذا الاختلاق لم يسعفه فى إدعاءاته الوهمية، لأن التحريم فى القرآن جاء على النحو التالى: **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النُصب﴾** سورة المائدة، الآية ٣.

من الواضح أن قائمة اللحوم المحرمة فى القرآن أطول بكثير مما حرم من طرف مجمع القدس فى أعمال الرسل: الأصحاح ١٥ الآية ٢٠.

كما أن اللحوم المحرمة فى القرآن مختلفة عما حرمه موسى من لحم الإبل والأرنب الوحشية والأسماك الخالية من الحراشيف. وهى كلها لحوم حللها القرآن.

ونكتفى بهذا القدر مما أطلقه مرجليوث من مزاعم وإدعاءات تفتقر لأدنى موضوعية، ولن نتعرض لآرائه الأخرى التى عرضها فى مقاله فى «موسوعة الدين والأخلاق»، المجلد الثامن، ص ٨٧١ - ٨٨٠، أدنبرج ١٩١٥. (Encyclopedia of Religion and Ethics. Vol. 8, pp 871 - 880, Edinburgh 1915). لأنها خارج نطاق بحثنا. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآراء أيضاً غارقة فى التعصب.

الفصل الخامس

أجناس جولدتسيهر وتشابهاته الخاطئة بين الإسلام واليهودية

لقد كتب إجناس جولدتسيهر Ignaz Goldziher (١٨٨٥٠ - ١٩٢١) مقالاً عن الإسلام في «الموسوعة اليهودية» ص ٦٥١ - ٦٥٩، نيويورك ولندن ١٩٠٤. The Jewish Encyclopedia. (TV 1, pp 651 - 659, New York and London, 1904). حيث بحث فيها على وجه الخصوص عن الأصول اليهودية لمختلف التصورات والتشريعات الإسلامية.

وسنتعرض بالتفصيل لهذه الآراء.

١ - إله إسرائيل وإله الإسلام:

حيث يؤكد أن مفهوم التوحيد الذى عارض به محمد وثنية عرب الجاهلية يتوافق فى جوهره مع ذلك التوحيد الوارد فى العهد القديم (المرجع السابق ٦٢٥ ب).

أولاً: نقول إن هذا الرأى خاطىء لأن إله العهد القديم خصص على أنه إله بنى إسرائيل دون غيرها. فإسرائيل هى التى اختارها الله (الخروج ١٩، ٦٤ - التثنية ٤، ٢٠ - ٣٢، ٩، ٧٠ - ٤١، ٨، ٩ - ٤٣، ٢١.. إلخ).

وعلى النقيض من ذلك، فإن الله فى الإسلام هو رب العالمين، (سورة الفاتحة، الآية ٢) دون أن يميز أحد من عباده عن الآخر ولم يخص شعباً معيناً بسيادته له.

ثانيا: إله إسرائيل هو الأب (أشعياء ٦٣، ١٦ - ٦٤، ٧). أما فى الإسلام فإن الله **﴿لم يلد ولم يولد﴾** (سورة الإخلاص، الآية ٣).

ولهذا كان باينتش Baentsch محقاً عندما قال إن التوحيد اليهودى توحيد قومى، أما التوحيد الإسلامى فهو عالمى. (Altorientalischer und israelistischer Monotheismus, p 77 - 94).

٢ ـ الصيام اليهودى والصيام الإسلامى:

يدعى جولدتسيهر ومن بعده فنسنك Wensinch (دائرة المعارف الإسلامية) (Encycl. de l'Islam, s.v) أن محمد أخذ الصوم عن اليهود. هذا الرأى بالطبع جانبه الصواب لما يأتى:

أولاً: لأن الصوم عند اليهود خضع لبعض الظروف الخاصة بتاريخ اليهود وانحصر فى يوم واحد. ويوم الصوم الوحيد الذى أمر به النبى موسى، وهو يوم الغفران (اللاويين ١٦٦ ـ ٢٩). وبعد السبى البابلى أقرت أيام أخرى للصيام من قبل أحبارهم تذكيراً بالمآسى التى لحقت بالشعب اليهودى (زكريا ٨ ـ ٩): صيام الشهر الرابع (تموز) والشهر الخامس (آب) والشهر السابع (تشرين) والشهر العاشر (تبيب). ويبدأ الصوم من الفجر لغاية ظهور أول نجوم الليل فيما عدا صوم الغفران والتاسع من آب، الذى يمتد من «الليل إلى الليل». ويقتصر الصيام على الامتناع عن الأكل والشرب فقط.

نلاحظ إذن أن الصيام اليهودى لا علاقة له بالصيام الإسلامى:

أولاً، الصيام فى الإسلام يستمر شهراً كاملاً (شهر رمضان) وليس يوماً أو نهاراً واحداً مثلما هو الحال بالنسبة للصيام لدى اليهود.

ثانيا، الصيام فى الإسلام ليس مرتبطاً بحدث تاريخى ولا بأى مأساة حلت بالمسلمين، لكنه ركن أساسى من الأركان الخمسة فى الإسلام.

أما الصيام لدى اليهود فهو اختيارى ولا يصبح ملزماً وفرضاً إلا عندما تكون الأمة اليهودية تحت اضطهاد ما. وينتفى عندما يحل السلام فيها. (الموسوعة اليهودية، ص ٧٣٤) (RH. 18b - The Jewish Encyclopeadia, tv, p 347b)

لقد عرف الصيام، كأداء دينى، فى عدة ديانات سبقت اليهودية، حيث اتخذ أشكالاً عديدة وسن لأهداف مختلفة. وكان بمثابة عمل تطهيرى، مؤداه التوبة والاغتسال من الذنوب. كما كان يراد منه إضفاء المزيد من القوة على الطقوس الدينية وفى الأخير كان أحياناً يدخل فى مراسيم الحداد.

ناهيك عن كونه فى المجتمعات البدائية فى مصر كان وسيلة للتطهر من الذنوب. أما فى بابل فقد كان الصيام يدخل فى طقوس التوبة. وهذا ماتدل عليه تراتيل التوبة التى كان يرددها البابليون حيث يصف الصائم كيف أنه لم يأكل ولم يشرب الماء. كما خصصت أيام فى فترات اليأس والكواردث حيث يكون الصوم أكثر شدة. Zimmern: Balrilonische Busspsalmen, Leipzig, 1885, p. 34' Masper, Sawn of Babylonia, Boston 1898, p 320, 688. فكيف يدعى جولدتسيهر أن محمد أخذ فكرة الصيام من اليهودية، كأن اليهودية هى الديانة التى ابتدعته وتناسى أن الصيام مورس منذ آلاف السنين قبل ظهور اليهودية؟ لكنه نفس التحيز ونفس الهاجس الذى جعله ويجعل أمثاله يرون بصمات يهودية فى كل شىء. حتى أن عدم نزاهته وانحيازه الدائم لبنى جلدته من اليهود والوساوس التى ترووده مثل نظرائه اليهود فى كل مكان جعلته وعلى مدى تناوله للصيام - وهو مايؤكد عدم أمانته وعدم صدقه - يضع بعد كلمة «صيام» العربية كلمة «صوم» العبرية بين قوسين ليلمح أن الكلمة العربية مجرد نسخ للكلمة العبرية. ولو كان أكثر ذكاءً لاستعمل فى مرجحته الكلمة العربية صوم بدلاً من صيام لأنها تقترب أكثر من الكلمة العبرية!

٣ - القِبْلَـــة:

يدعى جولدتسيهر أن محمداً قد قرر فى بادىء الأمر أن تكون قبلة الصلاة بيت المقدس تقرباً من يهود المدينة الذى كان معتمداً على قوتهم للاعتراف به كآخر رسول لله نصت عليه الكتب المقدسة (المرجع السابق، ص ٦٥٢ ب). وعندما لم يستطع استمالتهم قام بتغيير القبلة وجعلها الكعبة فى مكة.

يفتقد هذا الرأى للمصداقية لأنه لايقوم على أسس صحيحة، لكنه منتشر بين المستشرقين. وقال به كل من فبيل p. 90, Weil وموير 111, pp. 42 wqq, Muir وجريم «محمد» H.Grimme: Mohammad 1, p 71، وليون كيتانى Leone Caetani 1, p 455 sqq، وبهل p. 212, Fr. Buhl. وقد افتقد هؤلاء الأساس القوى فى دعاواهم.

ويمكننا أن ندرج الملاحظات التالية بشأن هذا الموضوع:

أولاً: نحن لانعلم علم اليقين اتجاه القبلة قبل الهجرة. وهناك بهذا الشأن ثلاث آراء:

١ ـ أن القبلة كانت الكعبة (الطبرى فى تفسيره: ١١، ٤ ـ وكذلك البيضاوى: ١١، ١٣٨).

٢ ـ أن القبلة كانت طول الوقت فى القدس (الطبرى: تفسير ١١، ٣، ٨ ـ تاريخ: ١، ص ١٢٢٨٠ ـ البلادزى: فتوح البلدان، الطبعة الثانية).

٣ ـ أن محمد قبل الهجرة كان يقف للصلاة فى مكة بحيث تكون إلى اليمين من الكعبة والقدس خط طولى فى اتجاه بيت المقدس (ابن هشام: السيرة، ص ١٩٠ ـ ٢٢٨).

لقد اعتمد سبرنجر (Sas leben und Sie Lehre des Mohamad 111, 46, n.2) وفنسنك (Mohammad eu de Joden te Medina, Dissertation, Leiden, 1908, p 108) الرأى الثانى الذى يقول إن قبلة الصلاة قبل الهجرة كانت تجاه بيت المقدس وافترضوا كذباً أن محمداً اتخذ بيت المقدس قبلة لأرضاء اليهود. إن كان الأمر كذلك فمن الخطأ الاعتقاد إذن أن محمد قد قرر أن تكون القدس هى القبلة لاستجلاب رضا اليهود لأنه فى مكة وقبل الهجرة لم يشعر بضرورة ذلك حيث لم يحتك باليهود فعلاً إلا وهو فى المدينة.

وفى رأينا أن صلاحية الرأى الثانى تدعمها عدة اعتبارات منها:

أولاً: أن عندما قرر محمد تغيير وجهة القبلة من القدس إلى الكعبة فى رجب من العام الثانى للهجرة (ابن هشام، طبعة فستنفيلد Wistenfeld، ص ٣٨١ ـ ابن سعد Man Gotb، ص ٢٦١ ـ الطبرى، تفسير ١١، ص ٣) أو فى شعبان من نفس السنة (الطبرى: تفسير، ١١، ٣ ـ ابن الأثير، ١١، ٩٨) لم يرد فى الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الحدث أى إشارة إلى فكرة العودة للقبلة القديمة (سورة البقرة، الآية ١٤٢ ومابعدها): **﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** (١٤٢). **﴿...وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه...﴾** (١٤٣). **﴿قد نرى تقلب وجهك فى**

السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ (١٤٤).

ثانياً: ومن جهة كانت الكعبة فى مكة قبل الهجرة ماتزال مرتعاً للوثنية العربية. فلم يكن من الممكن جعلها قبلة الإسلام الناشىء والتى كان يصبو إلى هدم ماتمثله لدى العرب من رمز للوثنية.

ثالثاً: يضاف إلى هذا أن الإسلام هو دين إبراهيم مؤسس الكعبة. فكان من الطبيعى أن يلتفت إليها المسلمون فى صلواتهم.

هذه البراهين كافية لدحض الزعم القائل بأن هناك علاقة مابين اختيار القدس كقبلة أولاً وبين موقف محمد من اليهود أو من الجاليات المسيحية فى الجزيرة العربية (كما يفترض ذلك فريدريش شفالى. Friedrich Schwally, (in Geschichte de Qorans, p. 175 - 6, mk).

لكن القول بأن القبلة قبل الهجرة كانت القدس شىء والقول أن النبى محمد قد استعار هذا الطقس من اليهود شىء آخر. صحيح أن اليهود يتجهون فى صلواتهم صوب القدس (سفر الملوك الأول، ٨، ٤٤، ٤٨ ـ سفر دانيال ٦ و ٢).

وأن إسرائيل تتجه أثناء الصلاة إلى نفس الوجهة (Yes Bar 17,5). ويكمن السبب الذى جعل محمد يتجه فى الفترة المكية ناحية القدس فى أن الكعبة لم تتطهر بعد من الوثنية بحيث كانت أنسب قبلة هى المسجد الأقصى. وتتحدث الآية الأولى من سورة الإسراء عن هذا المسجد الأقصى. صحيح أن ليس هناك إجمال حول تحديد هذا المسجد. لكن الفقه الإسلامى يقرنه عموماً بالقدس ويجمع على أن هذه الآية مكيّة وأن الإسراء قد تم من مكة إلى القدس.

والسؤال المطروح، هو عن أى قدس نتحدث؟

أعن القدس السماوية أم القدس الواقعية (تلك التى تقع فى فلسطين)؟ إنه سؤال غبى

أثاره بلاشير فى ترجمته للقرآن Blachère, tr du Coran, p. 306 n لأن هذه القدس السماوية مجرد خيال نسج فى النصوص الأخروية apocalyptiques اليهودية المتأخرة (Aeth Hen 90, 29) التى تتحدث عن قدس سماوية شيّدها الله فى السماء لتكون المأوى الأخير للمستقيمين. شىء يشبه الجنة، (Syr. Apocalypse Par 4, 2 sqq, Esdra 8, 52)، حيث تكمن شجرة الحياة.

ونّجد أن هذه القدس السماوية تحمل فى العهد الجديد معانى الأمل فى السلام حيث جاء ذكرها على هذا النحو فى رؤيا يوحنّا اللاهوتى (٢١، ٤٠) «وذهب بى الروح إلى جبل عظيم عال وأرانى المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله».

ويزعم بلاشير (نفس المرجع) زعماً غريباً فحواه أن «المسجد الأقصى هو القدس السماوية، ويضيف لكن مما لاشك فيه أنه بعد ذلك وربما فى خلافة الأمويين فى دمشق أصبحت عبارة المسجد الأقصى تشير إلى مدينة يهوذا وليس إلى القدس السماوية. والسبب فى هذا التغيير و أن بحث الأمويين عن طريقة لانتزاع مكة من مكانتها كعاصمة دينية للعالم الإسلامى كله»!!

٤ ـ الشريعة الإسلامية والهلاخا (الشريعة) اليهودية:

يتحدث جولدتسيهر أيضاً فى نفس المقال «الموسوعة اليهودية» (Jewish Encyclopeadia t.v 1, p. 665 to - 665) عن تأثير مزعوم للشريعة اليهودية على الشريعة الإسلامية. لكنه لايذكر بهذا الخصوص سوى طريقة ذبح الحيوانات ومراسيم غسل الأموات قبل الدفن!

لكنه تناسى أن غسل الأموات كان من الطقوس المنتشرة منذ الأزمنة الغابرة حتى لدى الشعوب البدائية (موسوعة الدين والأخلاق، طبعة ٤، ص ٤١٧، أدنبرج ١٩١١). (Encyclopedia of Religion and Ethics, t 4, p 417, Edinburgh 1911: Toilet of the Corpse). مما يثبت أن اليهود ليسوا من ابتكر هذا الطقس.

أما ذبائح الحيوانات لغرض التغذية فهو عملية جد معقدة لدى اليهود وفى غاية البساطة لدى المسلمين. يجب أن يقوم بعملية الذبح لدى اليهود الشوحت، أى رجل مؤهل للقيام بالذبح وعلى دراية بالطقوس. وطبقاً للقواعد التلمودية لايحق للنساء ممارسة هذه المهنة. (انظر Yoreh De'ah 1, 1). والشوحت الذى يجب أن تتوافر فيه شروط «لايجب أن يكون مدمناً للخمور (Shulhan 'aruk Yoreh De'ah 1, 8). كما يجب ألا يكون قد اتهم من قبل بإهمال واجباته (المرجع السابق ١، ١٤)، كما يجب أن ألا يكون فاجراً مخترقاً للقانون (المرجع السابق ١، ٥)، ويجب ألا يكون قد سبق له أن انتهك صراحة قدسية يوم السبت المقدس (المرجع السابق، ١، ٥). (الموسوعة اليهودية، ص ٣١١، نيويورك ولندن).
(The Jewish Encyclopeadia, t. XI, p 311, New York and London).

لا وجود لكل هذا فى الإسلام، حيث لايطلب أن يكون من يقوم بالذبح مؤهلاً دينياً، ولا يحمل أى لقب. كل ماهو مطلوب هو ذكر عبارة «بسم الله» قبل الذبح حتى لا تؤهل لغير الله. ونزع الحلقوم والمرىء. وهذه العادة ليست خاصة باليهود وحدهم.

يظهر إذن من هذين المثالين المعروضين كحالات لتأثير الشريعة اليهودية على الشريعة الإسلامية أنه لايوجد مجال لتأثير الواحدة على الأخرى. وليس من المجدى وضع المصطلحات الخاصة بالذبح المستعملة فى اللغة العربية إلى جنب المصطلحات فى اللغة العبرية أو العكس، لأن معنى المصطلح العربى مختلف تماماً عن معناه فى اللغة العبرية. لكن جولدتسيهر لجأ رغم ذلك إلى ذلك باستمرار مع أنه أسلوب غير نزيه فى البحث.

ونجده يلجأ إلى نفس الأسلوب عندما يدعى «أن عائشة زوجة النبى (ﷺ) أقرت بأنها تلقت فكرة عذاب القبر من امرأة يهودية وأن محمد (ﷺ) قد ضمها إلى تعاليمه»

من أين جاء بهذه القصة؟ لم يذكر شيئاً بهذا الشأن. بالتالى فإن هذا الرأى لايستحق بأن يؤخذ بعين الاعتبار. إضافة إلى أنه لم ترد أية إشارة لعذاب القبر فى القرآن. (انظر: فنسنك: العقيدة الإسلامية، ص ١١٧ - ١١٩) (Wensinck: Muslim Creed, p 117-199.)

ومع هذا يجب أن يعترف لجولدتسيهر اعتداله مقارنة بمستشرقين آخرين مثل ألفريد

فون كريمر Alfred Von Kremer: (Culturgeschichte des Orient unter deu chali-fen, 1, 525 - 55). الذى تمادى فى زعمه عندما ادعى أن القانون المدنى الإسلامى قد تأثر بالقانون التلمودى الحاخامى. حيث يلاحظ جولدتسيهر حول هذا الموضوع «إن الشك مع هذا يظل مشروعاً فيما يتعلق بعدد كبير من هذه التطابقات. ويمكن أن نتساءل أليس القانون الرومانى - الذى لايمكن إنكار تأثيره على تطور الشريعة الإسلامية - هو الذى يجب اعتباره المصدر المباشر المؤثر فى المشرعين المسلمين» (نفس المرجع، ص 657a). لكنه يرجعنا بهذا الحديث إلى معركة أخرى أكثر غموضاً كان طرفاً فيها من قبل عن طريق دراسة سطحية، باعترافه، (Mohammadanisch Studien II, p 75, n. 2) بعنوان (عند بداية علم الفقه الإسلامى Budapest, 1884, Abhandlungen ber ungar Akademie der Wissenschaften). وقد وعد بأن يتعمق فى هذا البحث. لكنه لم يف بوعده على مايبدو. ويعطى فى الدراسة المذكورة نماذجاً من التطابق بين القواعد القانونية الإسلامية واليهودية مدعياً أن الأولى استلهمت من هذه الأخيرة:

(أ) الاستصلاح فى القانون الإسلامى يعادلها تيقون ها عسلام Taqûn ha 'islam فى القانون اليهودى.

(ب) الاستصحاب = Praesumptio فى القانون الرومانى.

(جـ) تقول القاعدة القانونية: «القاضى لا يحكم بعلمه» (القاضى لايجب أن يحكم حسب معرفته الخاصة ولكن ببراهين موضوعية)، فى القانون الإسلامى، والتى يقابلها القاعدة التلمودية «القاضى لايجيب بعقله».

هذه القاعدة الأخيرة درس فى الحذر يعطيها جولدتسيهر وكان الجدير به أن يتعظ منها. لكنه للأسف نادراً مافعل مثلما ظهر من خلال هذا الفصل.

الفصل السادس

الصابئون في القرآن

من أصعب المسائل التى جابهت مفسرى القرآن هى تعريف «الصابئون» حيث ذكر هذا الاسم ثلاث مرات فى الآيات التالية:

١ ـ سورة المائدة، الآية ٦٩: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.**

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٦٢: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.**

٣ ـ سورة الحج، الآية ١٧: **﴿إن الذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد﴾.**

ولنطالع الآن مختلف آراء المستشرقين الذين تعرضوا بإسهاب لتفسير هذا المسمى.

أولاً: يعتقد سبرنجر A. Sprenger أنهم هم الحنفاء، ويشاركه الاعتقاد بيدرسن J. Pedersen.

(Oriental Studies Presented No E.G Burung Cambridge,1923,p386sqq.,391).

أما نحن فنعتقد أن هذا الرأى خاطىء للأسباب التالية:

(أ) أن الحنفاء كما يؤكده الشهرستانى فى الملل والنحل كانوا معارضين للصابئين. فالديانتان مختلفتان كل الاختلاف عن بعضهما البعض ومتعارضتان. فالحنفاء هم أتباع إبراهيم، أما الصابئة فيعبدون الكواكب، وهى العبادة التى رفضها إبراهيم (القرآن، سورة الأنعام، الآيات ٧٦ ـ ٨٧).

(ب) لم يذكر مطلقاً فى القرآن أن للصابئة كتاب مقدس، بينما جاء فيه أن لإبراهيم صحف (القرآن، سورة الأعلى، الآية ١٩ ـ سورة المجادلة، الآية ٣٨).

ثانياً: أما هوروفيتز J. Horovitz (Koranische Vnteropungen, p 121 sqq)، يعلن من جهته أن الصابئين هم طائفة أو مجمل طوائف المعمدانيين baptistes من نوع المندائيين. ويعرض هانس هاينريش شيدر Hans Heinrich Schàder لنفس الرأى فى مقال (in Die welt de Orients - Heft 4, p 290 Stuttgart 1949) قائلاً: «لقد سبق لمحمد أن سمع فى مكة عن المعمدانيين البابليين، وهم ما أطلق عليه الصابئون المذكورين ثلاث مرات فى القرآن. ويعود اسمهم هذا إلى الشكل البابلى ـ الآرامى للكلمة ومعناه: غطس الشىء فى الماء أى عمادته». ويتبنى بيل R. Bell نفس الرأى (Orign of Islam, p 60 sqq).

ثالثاً: ويقول كارا دى فو Carra de Vaux فى مقال (القرآن ومكانته فى قاموس اللاهوت الكاثوليكى) (Coran, sa composition, in le dictionnaier de Theologie Catholique, t. III, 2eme partie, col, 1778, Paris 1923).

«باقى القوانين المحمدية مستعار من اليهود والمسيحيين أو من طوائف توفيقية نابعة من التأليه الطبيعى Déisme. وكان يطلق على عدد من هذه الطوائف اسم الصابئين. أما الأدب العربى فيعرف نوعين من الصابئين: أولئك الذين ذكروا فى القرآن. وأولئك الذين سكنوا فى حران. ولقد درجت هذه الطوائف على عبادة الكواكب وممارسة الوضوء. ويعتبر محمد الصابئين من أهل الكتاب، أى من بين الأمم التى تمتلك كتباً مقدسة. والظاهر أنه استوحى منهم مذهب النبوة وأساطير الأنبياء وعادة الوضوء لكنه هاجم عبادة الكواكب. ويبدو من خلال الأهمية التى أعطاها للملائكة وللجن أنه تأثر بالطوائف الفارسية».

علينا أن نلاحظ أن نص كاردى فو فيه كثير من الخلط:

- خلط بين الطوائف المعمدانية وبين من يعبدون الكواكب.

- خلط بين عماد الطوائف المندائية وبين الوضوء قبل كل صلاة فى الإسلام.

- خلط بين قصص الأنبياء فى القرآن وبين القصص المذكورة فى كتب المندائيين المقدسة خاصة كتابهم الأكبر: الجينزا Ginza.

لنترك جانباً أطروحات كاردى فو ونتناول الرأى - أو الآراء - الذى أدلى به هانس هاينريش شيدر:

ربما يكون محمد قد سمع عن المندائية. ومن الجائز أن يكون أخبره عنها سلمان الفارسى الذى كان على دراية بالطوائف الدينية المنتشرة فى موطنه الأصلى، بلاد الفرس، (انظر: ل. ماسينون: سلمان باك، باريس ١٩٣٠، Massignon: Sâlman Pak, Paris 1930، والذى ترجمناه للعربية، القاهرة ١٩٣٧، فى شخصيات قلقة فى الإسلام).

ويكون طبقاً لهذا الطرح اسم الصابئين مأخوذاً من كلمة mas bûta أى غطس الشىء فى الماء وهذا أهم الطقوس لدى المندائيين.

لكن يصعب تبرير هذا الاشتقاق بالنظر للغة العربية. حيث أن فعل «صبأ» معناه الأصلى بالعربية التخلص. ثم مجازاً ترك ديانة للدخول فى ديانة أخرى. واسم الفاعل هو صابىء وجمعه السليم هو الصابئون. وبالتالى يشرح أبو إسحاق كلمة صابئون فى تفسيره للقرآن على أنها: أولئك الذين تركوا ديانة ليعتنقوا أخرى. (انظر الزبيدى: تاج العروس فى صبأ. الجزء الأول، ص ٣٠٧. طبعة الكويت). والسؤال هو أية ديانة تركوا؟ اليهودية أم المسيحية؟. وكما يقول كولب C. Colpe (in Encyclopedie: Die religion in Geshichte und gegewart, t. VI, sv Mandàer, p. 711): «علينا البحث عن أصل المندائيين فى طوائف المعمدانية الهراطقة اليهودية أو المسيحية التى كانت تتمركز فى المناطق الحدودية لسوريا وفلسطين. والإثبات على هذا هو المصطلح 'sb بدلاً من 'md للإشارة إلى الغطس فى الماء، وكذلك الإيحاءات المتفرقة حول الانفصال عن اليهودية والمسيحية».

وإذا أخذنا بالاشتقاق العربى فإننا نصل إلى أن الصابئين هم منشقين تركوا الديانة اليهودية أو المسيحية لتأسيس ديانة أخرى.. لكن يبقى أن نعرف أى ديانة تركوا: اليهودية أم المسيحية؟

ولو استندنا إلى ما أشار إليه القديس إبيفان Saint Epiphane (Haeres, XI) من أن الصابئين هرطقة سابقة للمسيحية تنطبق على الذين يعمّدون يومياً والذين ذكروا فى نصوص أخرى خاصة اليونانية على أنهم وجودا قبل المسيح فى المناطق المجاورة لنهر الأردن. (Hégésippe dans Eusébe HE, IV, 22, 5; Const. Apost, VI, 6; Pseudo - Jérôme, Ind. Haeres, Epiphane, Haeres, XVIII init., XIX 5, cf. Justin, Dialog., 50).

أما النصوص التلمودية فتشير إليهم واصفة إياهم بالذين يعمّدون فى الصباح الباكر.

(Berachoth, XXII a, Tosephata Ladaîm, II". G. Bardy in Dict. Théol. Catholique tr IX, 2eme partie, col. 1814).

طبقاً لكل ماسبق يكون الصابئون قد تركوا الديانة اليهودية!

أما الشهرستانى فيرجعهم إلى تاريخ أبعد. إذ يؤكد أنهم وجدوا فى عهد إبراهيم. ونعرض فيما يلى مختلف التعريفات التى اقترحها المفسرون المسلمون وفقهاء اللغة:

أولاً: الصابئون فى كتاب «الجوهرى»: الصحاح، هم قوم يشبه دينهم أهل الكتاب.

ثانياً: فى معجم الأزهرى: «التهذيب» الصابئون هم قوم يشبه دينهم دين النصارى ويزعمون أن يتبعون دين نوح.

ثالثاً: يقول البيضاوى فى تفسيره: يقال إنهم يعبدون الملائكة كما يقال أنهم يعبدون الكواكب.

ولقد خصص لهم الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل فصلاً واسعاً، حيث يعرض فيه لمذهبهم على شكل مجادلة بين الصابئة والحنفية، فخرج من هذا الجدال بنتيجة أن الصابئة يؤسسون ديانتهم على فكرة الروحانيات التى تلعب دور الوسيط بين الله الخالق الحكيم وبين الناس، هذه الروحانيات نقية جوهراً وفعلاً وحالة، جواهراً لأنها نقية من شوائب المادة ومتحررة من عوائق الحركة ومن التغيرات الزمنية. هذه الروحانيات هى كما جاء فى تعاليم المعلمين الأوائل هرمس: Hermes وأجدامون Agadémon، وهما اللذان

يشفعان لهم لدى الله إله الآلهة. وللوصول إلى هذه الروحانيات يتوجب على الصابئة أن يطهروا أرواحهم من الرغبات الطبيعية والتخلص من أى نزعة غريزية. وبعدما يتطهرون يستطيعون التقرب من هذه الروحانيات وعرض مشاكلهم عليها حتى تتوسط لهم لدى الله (الشهرستانى).

يتبين من هذا العرض الذى يقدمه الشهرستانى أن ديانة الصابئة قد تأثرت كثيراً بالثنائية الإيرانية. لكن هذا يبعدنا عن موضوعنا.

وحتى لو كان الأمر كذلك فإن القرآن يميز بينهم وبين المجوس مثلما جاء فى سورة الحج، الآية ١٧. ونتساءل بعد هذا: لماذا يقول عنهم القرآن: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** (سورة المائدة: الآية ٦٩).

و**﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾** (سورة البقرة: الآية ٦٢). هل يمكن اعتبارهم إذن من بين أهل الكتاب؟ لكن القرآن لايذكر عنوان كتابهم بينما جاء ذكرالتوراة والإنجيل. وكيف ان يمكن ذكر كتابهم: الجنزا أو الكنز بينما لم يجمع ولم ينسخ إلا فى القرن السابع والثامن الميلادى؟. ويقال أن الصابئون نسخوه ليقووا مركزهم أمام السلطة الإسلامية ويصبحوا من أهل الكتاب بحيث يعاملون مثل اليهود والمسيحيين.

ونشير من جهة أخرى أن الصابئين لايعترفون بالأنبياء اعتقاداً منهم أن الأنبياء مجرد بشر، ويذكر الشهرستانى أنهم يعتبرون أن الأنبياء من جنس البشر لهم نفس الشكل؛ ومخلوقين من نفس المادة، يأكلون ما نأكل ويشربون مانشرب. وأنهم بشر مثلنا. فلماذا إذن نحن مضطرون لطاعتهم؟ ماذا يميزهم عنا حتى نتبعهم؟ **﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم لخاسرون﴾** (سورة المؤمنون، الآية ٣٤).

هذه هى فلسفة الصابئة. كيف وضعهم محمد إذن فى نفس مرتبة اليهود والمسيحيين؟

والإشارة للآية ٣٤ من سورة المؤمنون تفسر لنا لماذا يقول الليث الذى ذكره الأزدى فى التهذيب والفيروزبادى فى القاموس أن الصابئون يزعمون أنهم على دين نوح. إذ بعدما يتحدث القرآن عن قصة نوح نجده يتحدث عن رسول ينحدر من جيل تالى لقوم نوح دعا

شعبه لعبادة الله، لكن شعبه رفض دعواه قائلاً ﴿ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ (سورة المؤمنون: الآية ٣٣ - ٣٤٤).

هذا برهان آخر ضد من يؤكدون أن الصابئون المذكورين فى سورة المائدة: الآية ٦٩، وسورة البقرة: الآية ٦٢، هم القوم الذين يزعم أنهم على ديانة نوح. لأن القرآن يدين هؤلاء بينما يمدح أولئك المشار إليهم فى الآيات أعلاه.

نحن إذن أمام مشكلة معقدة. فالصابئون المذكورين فى الآيات السابقة الذكر وفى الآية ١١ من سورة الحج ليسوا هم الصابئة الذين وصفهم الشهرستانى ولا هم أتباع نوح كما قال الليث، الأزدى والفيروزبادى. وليسوا أيضاً المندبين مثلما يدعيه هوروفيتز وشيدر وغيرهم. فليس فى معتقداتهم مايمكن أن يكون قد أثر على محمد: عبادة الكواكب، عدم الاعتراف بالنبوة، الثنائية الكوسموجونيا، الطقوس، التعميد.

أما إشارة باردى G. Bardy (dict, Théo cath. IX, 2 vol. 1814) إلى الطائفة التى سماها القديس إبيفان Saint Epiphane (odversus gaeres, p 6. t. 41, col 233): Sebuaes, Sebouaioi، مغلوطة. لأن هذا الأخير لايقول شيئاً عن معتقدات هذه الطائفة ولم يتحدث سوى عن تبديلهم لتواريخ بعض الأعياد اليهودية. إضافة إلى ذلك نجد أن باردى يخلط دون تقديم حجج على قوله بين القوم الذين تحدث عنهم إبيفان وهم اميروباتسنا Hemeropaptistes فى الفصل السابع عشر وبين الناصريين الذين يذكرهم فى الفصل الثامن عشر (PG, 41, col 255 - 259). وحتى لو مزجنا بين هذه الطوائف اليهودية الثلاثة فإننا لانصل إلى نتيجة تجعلنا نفسر الثناء على الصابئين فى القرآن. هل هذا يعنى أن التوصل لحل لغز الصابئون فى القرآن أمر ميئوس منه؟

نعم. هذه خلاصة الكلام فى الموضوع.

الفصل السابع

الرُســل فى القــرآن: نقد لابتكار فينسنك

من بين الآراء الخيالية - وما أكثرها! - التى عرضها فينسنك الرأى الذى يقول فيه: «فكرة الرسل كمبشرين كل منهم إلى شعب مختلف، ربما وصلت إلى محمد عن طريق قنوات مسيحية، حيث أن المسيحية تسعى للانتشار. والفرق يكمن فى الحقيقة فى أن محمد والمسلمين لايعرفون أى شىء عن الرسل الإثنى عشر».

أبدأ وأسأل نفسى: لماذا لم يتسن لمحمد الإطلاع على فكرة «الرسل» المبشرين إلا من خلال المسالك المسيحية؟ ألم توجد فكرة الرسل الداعين إلى ديانة والمبعوثين إلى شعب ما موجودة لدى اليهود؟

لقد تكررت هذه الفكرة فى عدة مواضع من العهد القديم:

١ - فى سفر الملوك الأول، الأصحاح ١٤، الآية ٦، ٧ «.. أنا مرسل إليك بقول فاس. اذهبى قولى ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل. من أجل أنى قد رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيساً على شعبى إسرائيل».

٢ - فى سفر إشعياء، الأصحاح، الآية ٨، ٩: «ثم سمعت صوت السيد قائلاً من ارسل ومن يذهب من أجلنا. فقلت هأنذا أرسلنى. فقلت اذهب وقل لهذا الشعب....».

ويقابل كلمة رسول باللغة العبرية كلمة شَالُوحْ Shaloh، وقد ترجمت إلى الإغريقية بكلمة apostolos.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الكلمة ابستلس apostolos لها عدة استعمالات ومعانى فى العهد الجديد:

١ - فى إنجيل متى (١٠، ٢)، وإنجيل مرقس (٦، ٣٠)، وإنجيل لوقا (٦، ١٣) المقصود منها الرسل الإثنى عشر الذين لم يشر إليهم القرآن مطلقاً، باعتراف فينسنك. (حيث لم يرد سوى اسم الجنس: الحواريون).

٢ ـ أما فى إنجيل لوقا ١١، ٤٩ فإن كلمة ابستلس apostolos يشار بها إلى رسل الله «لذلك أيضاً قالت حكمة الله إنى أرسل إليهم أنبياء ورسلاً».

٣٣ ـ وفى الرسالة الثانية إلى أهل كورنتس ـ٨، ٢٣) والرسالة إلى أهل فيلبى (٢، ٢٥) يقصد بها مبعوثى الكنيسة.

ولو كان فعلاً لمحمد أن يطلع على فكرة الرسل المبعوثين لشعوب لفعل ذلك متأثراً باليهود وليس بالمسيحيين!

ولا نقول بهذا أن محمد قد إطلع على فكرة الرسل من أولئك وليس من هؤلاء! لكننا نحاول فقط إثبات أنه لم يأخذ هذه الفكرة من أحد. والإثبات على ذلك أن فكرة رسول الله فكرة مختلفة تماماً عن فكرة الشَالُوَحْ shaloh بالعبرية والابستلس apostolos بالإغريقية.

مفهوم رسول الله مختلف عن المفهوم اليهودى لأن الرسول فى الإسلام ليس مجرد مبعوث من عند الله يعلن ويعرض أمراً. فمهمته التى يتولاها طوال حياته هى أن يعلن عن ديانة وأن يجيىء بكتاب مقدس. بحيث تتجاوز مهمته مجرد النبوة لأن النبى لايجيىء بكتاب مقدس.

ولهذا السبب تذهب كتب الفقه الإسلامية إلى التمييز بين (الرسول) و(النبى). فالرسول هو مبعوث الله ليدعو إلى ديانة ويقدم للناس كتاباً مقدساً يعبر عن كنه هذه الديانة. أما النبى فمهمته تنحصر فى الدعوة والإعلام والتنبيه. بناءً عليه فإن مايطلق عليه بالعبرية الشَالُوَحْ shaloh مبعوث لشخص بعينه أما الرسول فى الإسلام فمبعوث إلى أمة.

ويختلف مفهوم الرسول فى الأناجيل ولدى الكنيسة المسيحية. فالرسل الإثنى عشر ليسوا رسل الله بل رسل المسيح. إضافة إلى أن لا أحد من بينهم جاء بكتاب مقدس. فكل واحد منهم يدعو لنفس الديانة ويحمل نفس الأخبار. بالتالى نجد أن معنى كلمة رسول فى الإسلام مختلفة عن كلمة apostolos فى المسيحية.

هذا يفسر لنا لماذا لايطلق القرآن على الرسل الإثنى عشر اسم الرسل، فهم مجرد أتباع ليسوع: حواريون. وهى كلمة يرجعها نولدكه إلى أصل إثيوبى فى أبحاث عن علم

اللغـــات الســـامية. (Nôldeke: Beitrage zur Zemiteschen Sprachwisseuchaftt, p. 48)

أما المعاجم العربية فتقترح عدة تفسيرات أقربها إلى الصواب تلك التى تقول إن الحوارى هو: الحميم، الشديد الوفاء. ويذكر فى سياق هذا التفسير أن الرسول قال عن الزبير بن العوام إنه حواريى، بمعنى من عشيرته ومن أقرب الصحابة (تاج العروس: الجزء ١، ص ١٠٣، طبعة الكويت). وبناءً عليه سمى المقربون للرسول بالحواريين. ويقال عن الحوارى أنه النصير (نفس المرجع). ولقد حمل لفظ الحواريون الذى جاء فى القرآن هذا المعنى، حيث استعمل لوصف أنصار يسوع: سورة آل عمران، الآية ٥٢: **﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾**.

وفى الأخير نشير إلى بعض الإحصائيات تبين مدى أهمية فكرة الرسول فى القرآن:

١ ـ لقد جاء ذكر كلمة رسول ١٤٦ مرة، ثلثها متعلق بمحمد.

٢ ـ كلمة رسوله جاء ذكرها ٨٤ مرة، وكلمة رسولنا ٤ مرات.

٣ ـ مفهوم الرسول فى الإسلام يكتسى أهمية كبيرة تفوق بكثير أهميته فى اليهودية والمسيحية. لهذا نقول إنه لامجال للمقارنة بين المسيحية والإسلام.

والإيحاء بأن الإسلام قد اقتبس من غيره غباء صرف!

الفصل الثامن

قراءة لتصور يونانى خيالــى للقــرآن

لقد عرفنا كيف قام مستشرقون مثل (هيرشفيلد وجولدتسيهر وهورفيتز وتورى) بقراءة القرآن من منظور يهودى وكيف ذهب آخرون (موبير، بيل، آرنز.. إلخ) إلى قراءة مسيحية أو يهودية مسيحية.

وسنعرض فى هذا الفصل على سبيل التهكم والمداعبة لرأى يونانى ونرى كيف كان سيقرأ ويفسر القرآن.

كان سيدعى أن: القرآن استعار أفكاراً عديدة من الفكر اليونانى:

(أ) استعار من أرسطو مفهوم الفضيلة كوسط بين نقيضين (أرسطو: الأخلاق إلى نيقوماخوس) (Ethique à Nicomoque II, 6, 1106 b36)

إذ يقول القرآن: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** (سورة البقرة: الآية ١٣٤).

لقد أكد الفقهاء المسلمون - ولازالوا - على صفة الوسطية فى الإسلام كعلامة مميزة لهذا الدين. إذ يحافظ هذا الأخير دائماً على الوسط بين الإفراط والتفريط، بين الأقصى وبين الأقصى الآخر سواء كان هذا فى أخلاقياته أو فى مفهومه التشريعى أو فى معتقداته أو طقوسه..إلخ.

فالإسلام كأمة ودين ذكر فى القرآن على أنه: **﴿كنتم خير أمة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾** (سورة آل عمران: الآية ١١٠).

(ب) لقد مجد القرآن الإسكندر الأكبر فى سورة الكهف من الآية ٨٣ - ٩٨، حيث ذكر تحت اسم ذو القرنين: **﴿إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً. فاتبع سبباً. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها**

قوماً قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا﴾، وهو الذى أقام سداً بين يأجوج ومأجوج وبين المؤمنين. لقد كان الإسكندر الأكبر إذن حاكماً مثالياً وعادلاً.

(جـ) لقد جاء ذكر أسطورة سيزيف فى القرآن. وتروى الأوديسة محنة سيزيف (11, 593sqq) على أنها محنة لاتنتهى، كلما صعد سيزيف بالصخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه تسقط ثانية فيعيد الكرّة. ويظل هكذا طول الدهر.

ونجد أن القرآن يصف نفس المحنة فى سورة المدثر، الآية ١٦ ـ ١٧: **﴿كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعوداً﴾**.

(د) نقرأ فى القرآن: **﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾** (سورة الأنبياء: الآية ٣٠). و**﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾** (سورة النور: الآية ٤٥). إنها فكرة طاليس (٦٤٠ ـ ٥٦٢ ق.م)، الذى أكد أن الماء هو أساس الكون وأن كتلة المياه تحيط بكل العالم، فالماء هو مصدر الحياة وسبب الخصوبة وضرورى للزرع.

ـ ذكر فى القرآن أن: **﴿الله نور السماوات والأرض... نور على نور﴾** (سورة النور: الآية ٣٥). ونجد أن فى الأفلاطونية المحدثة وخاصة عند مؤسسها أفلوطين Plotin (٢٠٤ ـ ٢٧٠م) أن النور هو المبدأ الأول والكون بأسره ماهو إلا انعكاس لهذا المبدأ «إنه نور من نور» (phôs ek photos).

ولقد أسس الإشراقيون على الآيتين أعلاه مدرستهم ومذهبهم الذى وضع دعائمه الأولى السهرودى المقتول (؟ ـ ١١٩١).

ـ وجاء فى سورة الجاثية، الآية ٢٤: **﴿وقالوا ماهى إلى حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**.

يمكن أن نفترض أن هنا إيحاء فى هذه الآية إلى الأبيقوريين الذين يعتبرون أن الحياة وحدها جديرة بالاهتمام. ولايمثل الموت شيئاً بالنسبة لهم. فقد أسقطوه من اهتماماتهم.

وبالتالى يدعون إلى التمتع بملذات الحياة الفانية لأنه لاوجود للروح الخالدة وللبعث بعد الموت. ويعتقدون أن الروح مجرد جسد داخل جسد آخر مكونة من ذرات تضمحل عندما يحل الموت ولايبقى شيئاً «الموت لاشىء بالنسبة لنا. طالما نحن موجودون لا وجود للموت وعندما يأتى الموت نصبح لاشىء». (Epicurus: Epistulae tres et rata sententia, 111, 124, Leipzig, 1922; Lucretius, De rerum natura, 111, V. 828 sqq).

ويرى أبيقور أن الآلهة مجرد ذرات دقيقة تعيش بأعداد لامحدودة فى مساحات لامحدودة توجد مابين العوالم. وحتى الآلهة لاتهتم بشىء آخر سوى سعادتها. (Cicéron, Natura deorum, 1, 51)

إن إشارة القرآن إلى مذهب الأبيقوريين يدل على أن هذا المذهب قد انتشر فى شبه الجزيرة العربية. ويبدو أن سكانها قد اعتنقوا المذهب دون معرفة صاحبه. وهذا أمر شائع فى تاريخ الإنسانية.

حان الوقت الآن لنضع حداً لهذه المداعبة وإلا لوقع صاحبنا اليونانى فى نفس أخطاء هيرشفيلد، جولدتسيهر، هوروفيتز والآخرون!

الفصل التاسع

«البسملة» هل أصلها إنجيلى؟

يدعى نولدكه - شفالى (تاريخ القرآن، المجلد الأول، ص ١١٦ (Geschichte de Qorans 1, p 116) أن العبارة التى تستهل بها كل سورة من سور القرآن (فيما عدا سورة براءة Barâ'ah) (التوبة) «يرجع إلى استخدام لغة الإنجيل المتداولة، ثم يحد من هذا التأكيد مضيفاً أن: تغيير لغة القرآن امتداداً للغة الإنجيل فيما عدا بعض الألفاظ مثل «بسم الله»، و«قل» (٣، ١٧) التى استخدمها القرآن بطريقة مختلفة عما جاء فى الإنجيل».

ويقول أن الأصل العبرى للعبارة باسم يهوا yahwa bishm فى العهد القديم. أما أصلها اليونانى فيوجد فى العهد الجديد en onomeati kouriou.

لكنى بحثت دون جدوى فى العهد القديم عن عبارة yahwa bishm كعبارة صلاة وابتهال لله مثلما هو الحال بالنسبة للبسملة فى القرآن. وهذا هو المكان الوحيد الذى استعملت فيه عبارة yahwa bishm فى العهد القديم. سفر الملوك الأول، الأصحاح ١٨٨، الآية ٢٤: «ثم تَدْعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب يهوا (yahwa)».

يظهر جلياً أن ليس هناك أى تشابه فى هذا مع البسملة. ويجب أن يكون المرء أبلهاً حتى يدعى أن أصل البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم، يرجع إلى هذه الآية الإنجيلية.

ولقد استعملت عبارة باسم يهوا yahwa bishm فى آية إنجيلية أخرى بمعنى معونة يهوا yahwa وليس بمعنى الابتهال. إنها الآية ٤٥ من سفر صموئيل الأول، الأصحاح ١٧ «فقال داود للفلسطينى أنت تأتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس. وأنا آتى إليك باسم الرب yah-wa bishm». وهذا هو معنى عبارة yahwa bishm فى عدة أجزاء من العهد القديم. (مثلاً: أيوب ١ - ٢١، المزامير).

وبما أن هذه الأجزاء لم تستعمل فيها العبارة بمعنى الابتهال لله فإنها خارج نطاقنا.

أما فيما يتعلق بالعهد الجديد فإن نولدكه ـ شفالى يعودان إلى آية ١٧ من الأصحاح الثالث من رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثا: «وكل ماعملتم بقولٍ أو فعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين لله والأب به».

فلنتساءل الآن ما علاقة هذه الآية بالبسملة؟ والجواب بسيط: لا علاقة لدرجة أن هذه الآية متناقضة تماماً مع مفهوم ومعنى البسملة.

لكن تعنت نولدكه ـ شفالى لا حدود له. وهاهم يواصلون قولهم: «وذلك يرجع أيضاً الموضوعان بالقرآن التى توجد فيها البسملة إلى مصادر يهودية بصرف النظر عن عناوين السور (سورة هود، الآية ٤٣، وسورة النمل، الآية ٣٠» (المرجع السابق ص ١١٧).

لكنهم لايذكرون أى مصدر يهودى. مما يدل على أن إدعائهم لا أساس له من الصحة. لهذا لم يورد كارا دى فو Carra de Vaue (فى فصل البسملة) ووالس A.T. Welech (فصل القرآن) زعم نولدكه ـ شفالى المغلوط ضمن مقالات موسوعة الإسلام (الطبعة الثانية) Encyclopedie de l"Islam (2eme éd).

الفصل العاشر

فشل أى محاولة لترتيب القرآن ترتيباً زمنياً

لقد تعددت وتضاربت محاولات العلماء المسلمين القدامى وكذلك محاولات المستشرقين الأوروبيين المحدثين التى انصبت على ترتيب السور القرآنية زمنياً.

أولا ـ الترتيب لدى المسلمين

يتفق العلماء المسلمين الذين تناولوا هذه المسألة على تقسيم السور القرآنية إلى سور مكية وأخرى مدنية. لكنهم وضعوا قوائم مختلفة نوعاً ما عن هاتين الحقبتين. لنرى معاً هذه القوائم وفقاً للترتيب الزمنى الذى اختاره واضعوها.

١ ـ يعطى ابن النديم فى «الفهرست» القائمة الزمنية التالية:

(أ) الحقبة المكية:

٩٦ (١ ـ ٥)، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٤، ١٠٣، ٨٩، ٩٣، ٩٢، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٥، ١١٢، ١١٣، ١١٤ (ويقول آخرون إن هذه السورة مدنية)، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٥٥، ٧٢، ٣٦، ٧ (أم ص، لكنها سيعاد ذكرها ثانية فيما بعد تحت اسمها المعروف الأعراف من بين السور المكية)، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١١، ١٢، ١٠، ١٥، ٣٧، ٣١ (وآخرها مدنية)، ٢٣، ٣٤، ٢١، ٣٩ ـ ٤٥، ٤٦ (آخرها مدنية)، ٥١، ٨٨، ١٨ (آخرها مدنية) ٦ (وتتضمن آية مدنية) ١٦ (آخرها مدنية) ٧١، ١٤، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٩٠، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣، ٥٤، ٨٦.

(ب) الحقبة المدنية:

٢، ٨، ٧ (انظر أعـــلاه)، ٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ١١٠، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٢، ٦٤، ٦١، ٤٨، ٥، ٩.

وترجع هذه القائمة إلى الزهرى كما ذكر محمد بن نعمان بن بشير.

٢ ـ قائمة عمر بن عبدالكافى:

(أ) الحقبة المكية:

٩٦، ٦٨، ٧٣، ٧٤، ١١١، ٨١، ٨٧، ٩٢، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٣، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٩، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٢، ٥٣، ٨٠، ٩٧، ٩١، ٨٥، ٩٥، ١٠٦، ١٠١، ٧٥، ١٠٤، ٧٧، ٥٠، ٩٠، ٨٦، ٥٤، ٣٨، ٧، ٧٢، ٣٦، ٢٥، ٣٥، ١٩، ٢٠، ٥٦، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ١٧، ١٠، ١١، ١٢، ١٥، ٦، ٣٦، ٣١، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥١، ٨٨، ١٨، ١٦، ٧١، ١٤، ٢١، ٢٣، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٣٠، ٢٩، ٨٣.

(ب) الحقبة المدنية:

٢، ٨، ٣، ٣٣، ٦٠، ٤، ٩٩، ٥٧، ٤٧، ١٣، ٥٥، ٧٦، ٦٥، ٩٨، ٥٩، ١١٠، ٢٤، ٢٢، ٦٣، ٥٨، ٤٩، ٦٦، ٦٢، ٦٤، ٦١، ٤٨، ٥، ٩.

لايوجد فرق كبير بين القائمتين:

(أ) الحقبة المكية:

- من ٩٦ إلى ٨٧ نجد نفس الترتيب.
- من ٩٤ (القائمة الأولى) إلى ٩٠: نفس الترتيب.
- من ١٩ إلى ٣٤: الترتيب يكاد يكون نفسه.
- من ٣٤ إلى ١٨: الترتيب نفسه.
- من ٣٢ إلى ١٨: الترتيب نفسه.

(ب) الحقبة المدنية:

لقد اتبع العالمان نفس الترتيب فى القائمتين. لكن لانجد فى هاتين القائمتين مايفسر لنا على أى أساس اعتمد هذا الترتيب الزمنى.

٣ ـ أما القوائم الأخرى التى جاءت فى الإتقان للسيوطى وفى كتاب المبانى ليست مختلفة كثيراً عن القائمتين القديمتين

(أ) ورد شك فى المبانى al-Mabâni حول السورة ٩٣. هل هى مكية أم مدنية؟

(ب) فى قائمة ذكرت فى الإتقان ـ ويعود إسنادها إلى عكرمة. وضعت السورة ٤٤ بعد ٤٠، و ٣ بعد ٢ واعتبرت السورة ٨٣ كأول سورة مدنية.

(جـ) وتضع القائمة رقم ٤ التى جاءت فى المبانى ـ وتعود إلى سعيد بن المسيب ثم إلى على وإلى النبى ـ السورة ٩٣ قبل ٧٣ و٥٥ بعد ٩٤، و١٠٠ بعد ١٠٥، و٢٢ قبل ٩١، و٦٩ قبل ٢٤، وتعتبر السورة ١٣ أول سورة مدنية والسور ٥٦، ١٠٠، ١١٣، ١١٤ كآخر سور فى الفترة المدنية.

٤ ـ واعتمد واضعوا الطبعة الحكومية المصرية للقرآن التى صدرت فى ١٣٢٢هـ/ ١٩٢٤م الترتيب الآتى:

(أ) الفترة المكية:

٩٦ ـ ٦٨ (فيما عدا ١٧ ـ ٣٣، ٤٨ ـ ٥٠ مدنية) ـ ٧٣ (١٠ ـ ١١ ـ ٢٠، مدنية) ـ ٧٤ ـ ١ ـ ١١١ ـ ٨١ ـ ٨٧ ـ ٩٢ ـ ٨٩ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٠٣ ـ ١٠٠ ـ ١٠٨ ـ ١٠٢ ـ ١٠٧ ـ ١٠٩ ـ ١٠٥ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٢ ـ ٥٣ ـ ٨٠ ـ ٩٧ ـ ٩١ ـ ٨٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠١ ـ ٧٥ ـ ١٠٤ ـ ٧٧ ـ (٤٨ مدنية) ـ ٥٠ ـ (٣٨ مدنية) ـ ٩٠ ـ ٨٦ ـ ٥٤ ـ (٥٤ ـ ٥٦ مدنية) ـ ٣٨ ـ ٧ (١٦٣ ـ ١٧٠ مدنية). ٧٢ ـ ٣٦ ـ (٤٥ مدنية) ـ ٢٥ (٦٨ ـ ٧٠ مدنية) ـ ٣٥ ـ ١٩ ـ (٥٨ ـ ٧١ مدنية) ـ ٢٠ (١٣٠ ـ ١٣١ مدنية) ـ ٢٥ (٦٨ ـ ٧٠ مدنية) ـ ٣٥ ـ ١٩ ـ (٥٨ ـ ٧١ مدنية) ـ ٢٠ (١٣٠ ـ ١٣١ مدنية). ٥٦ (٧١ ـ ٧٢ مدنية) ـ ٢٦ (١٩٧، ٢٢٤ ـ ٢٢٧ مدنية) ـ ٢٧ ـ ٢٨ (٥٢ ـ ٥٥ مدنية، ٨٥ خلال الهجرة) ـ ١٧ (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ٧٣، ـ ٨٠ مدنية) ـ ١٠ (٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦ مدنية) ـ ١١ (١٢، ١٧، ١١٤ مدنية) ـ ١٢ (١، ٢، ٣، ٧ مدنية) ـ ١٥ ـ ٦ (٢٠، ٢٣، ٩١، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ مدنية) ـ ٤٠ (٥٦، ٥٧ مدنية) ـ ٤١ ـ ٤٢ (٢٣، ٢٤، ٢٧ مدنية). ٤٣ (٥٤ (مدنية) ـ ٤٤ ـ ٤٥ (١٤ مدنية) ـ ٤٦ (١٠، ١٥، ٣٥ مدنية) ـ ٥١ ـ ٨٨ ـ ١٨ ـ (٢٨، ٨٣، ١٠١ مدنية) ـ

١٦ (١٢٦، ١٢٧، ١٢٨ مدنية) ـ ٧١ ـ ١٤ ـ (٢٨، ٢٩، مدنية) ـ ٢١ ٢٣ ـ ٣٢ (١٦ ـ ٢٠ مدنية) ـ ٥٢ ـ ٦٧ ـ ٧٠ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٢ ـ ٨٤ ـ ٣٠ (١٧ مدنية) ـ ٢٩ (١ ـ ١١ مدنية) ـ ٨٣.

(ب) الفترة المدنية:

٢ (٢٨١، فيما بعد) ـ ٨ (٢٠ ـ ٢٦ مكية) ـ ٣ ـ ٣٣ ـ ٦٠ ـ ٤ ـ ٩٩ ـ ٥٧ ـ ٤٧ ـ (١٣ أثناء الهجرة) ـ ١٣ ـ ٥٥ ـ ٧٦ ـ ٦٥ ـ ٩٨ ـ ٥٩ ـ ٢٤ ـ ٢٢ ـ ٦٣ ـ ٦٨ ـ ٤٩ ـ ٦٦ ـ ٦٤ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٤٨ ـ ٥ ـ ٩ (١٢٨ ـ ١٢٩ مكية) ـ ١١٠.

ويكاد يكون هذا الترتيب مطابقاً للقائمة التى وضعها ابن عبدالكافى.

ويعترف واضعوا هذه الطبعة المصرية الذين كان يرأسهم خلف الحسينى شيخ المقرئين المصريين بهذا صراحة. حيث ذكروا فى خاتمة الطبعة أنه تم استعارة الترتيب المكى والمدنى من كتب مثل كتاب أبى القاسم أم أعرب وكتاب محمد بن عبدالكافى وكتب القراءات والفقه القرآنى وإن كانت متضاربة. ويبدو أن واضعى هذه الطبعة لم يبذلوا أى مجهود شخصى. حتى الإشارة التى تلى رقم السور بين القوسين والمقصود منها الآيات التى ضمت فيما بعد للسور القرآنية، مستقاة من كتاب الإتقان للسيوطى ومن بعض التفسيرات القرآنية. ومايمكن قوله باختصار هو أن عمل هذه اللجنة يفتقد إلى الإبداع. إنه مجرد نقل.

لماذا كرس المسلمون كل هذا الوقت وكل هذا الجهد منذ وفاة النبى لترتيب السور القرآنية ترتيباً زمنياً؟

السبب هو طبعاً مسألة «الناسخ والمنسوخ». لأن التشريع الإسلامى الذى نزل على محمد جاء على مراحل. مما جعل بعض القواعد تلغى لحساب أخرى وفقاً للتطور فى الوحى. وأصبحت قضية الناسخ والمنسوخ علماً قائماً بذاته اكتسى اهمية كبرى. فاعتماداً على هذا العلم كانت تصدر القرارات العملية التى تنظم حياة المسلمين. وشرع العلماء المسلمين فى كتابة مؤلفات لاحصر لها فى هذا الصدد منذ القرن الثالث الهجرى.

خاصة أنه جاء ذكر مسألة الناسخ والمنسوخ فى مواضع مختلفة من القرآن:

١ ـ فى سورة البقرة، الآية ١٠٦: **﴿ماننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها﴾**.

٢ ـ فى سورة النحل، الآية ١٠١: **﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتر بل اكثرهم لايعلمون﴾**.

٣ ـ سورة الحج، الآية ٥٢: **﴿فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾**.

فالنسخ يدل إذن على معنيين إما:

(أ) مسح وإلغاء ماقبله كما فى الآية ٥٢ من سورة الحج.

أو

(ب) إحلال محل.. كما فى الآية ١٠١ من سورة النحل.

ويمكن تقسيم القرآن إلى أربعة أجزاء من منظور مسألة النسخ:

١ ـ فى الجزء الأول لم يطرأ أى نسخ. ويتضمن هذا الجزء ٤٣ سورة هى سورة الفاتحة ـ سورة يوسف ـ سورة يس ـ الحجرات ـ الرحمن ـ الحديد ـ الصف ـ الجمعة ـ التحريم ـ الحاقة ـ نوح ـ الجن ـ المرسلات ـ النبأ ـ النازعات ـ الإنشقاق ـ البروج ـ الطارق ـ الأعلى ـ الفجر.. إلى آخر القرآن. فيما عدا سورة التين ـ العصر ـ الكافرون.

٢ ـ جزء ثان يتضمن آيات ناسخة وآيات منسوخة فى ٢٥ سورة: سورة البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الحج ـ النور ـ الفرقان ـ الشعراء ـ الأحزاب ـ سبأ ـ غافر ـ الشورى ـ الذاريات ـ الطور ـ الواقعة ـ المجادلة ـ المزمل ـ المدثر ـ التكوير ـ العصر.

٣ ـ يحتوى الجزء الثالث على آيات ناسخة فقط جاءت فى ستة سور: سورة الفتح ـ الحشر ـ المنافقون ـ التغابن ـ الطلاق ـ الأعلى.

٤ ـ يتضمن الجزء الرابع الأربعين سورة المتبقية التى تحتوى على آيات منسوخة.

(لمزيد من التفاصيل ارجع إلى كتاب الإتقان، الجزء الثالث، ص ٦٢ ـ ٧٧، القاهرة ١٩٦٧، طبعة إبراهيم أبو الفضل).

والغريب أننا نجد أحياناً فى نفس السورة آية منسوخة وآية ناسخة. كما هو الحال فى سورة الأحزاب حيث نسخت الآية ٥٢ بالآية ٩٣. فهذه المسألة معقدة نوعاً ما وهو ما أكد عليه السيوطى ذاكراً أن هناك خلافات كثيرة بين العلماء فيما يتعلق بعدد وبتصنيف الآية الناسخة والمنسوخة. وراح ينظم قصيدة تعليمية يقول فيها رأيه بالموضوع (انظر الإتقان، الجزء الثالث ـ ص ٦٨).

أنما نحن فنكتفى بهذا القدر ونغلق قوس النسخ الذى لم نذكره فى بحثنا هذا إلا لنؤكد على سبب اهتمام العلماء المسلمين منذ وفاة الرسول بترتيب السور القرآنية ترتيباً زمنياً.

ثانيا ـ الترتيب لدى المستشرقين

بينما لم يبرر واضعى أقدم قائمتى الترتيب الزمنى للقرآن اختيارهم لهذا الترتيب، راح المستشرقون المعاصرون يدلون بدلوهم. ويحاولون خوض هذه القضية اعتماداً على أبعاد داخلية وخارجية.

١ ـ نولدكـــه:

لقد قام نولدكه بأول مبادرة جادة لترتيب سور القرآن زمنياً فى كتابه الهام:

Geschichte de Korans (Gottingen, 1860).

وتعتمد هذه المبادرة على نظرة خارجية ونظرة داخلية، تقوم الأولى على:

(أ) الحديث.

(ب) الكتب التاريخية (سيرة ابن هشام، وكتاب الطبرى واليعقوبى.. إلخ).

(جـ) الكتب المتعلقة بأسباب النزول.

أما النظرة الداخلية فتقوم على:

(أ) الأسلوب وخصوصيات الكلام والعبارات.

(ب) القواعد التى جاء بها الوحى طبقاً لتطور رسالة النبى.

(جـ) موقف النبى حيال اليهودية والمسيحية والوثنية العربية.

ويمكن إيجاز ملخص أبحاثه كالآتى، إذ يقول:

أولاً: يجب التمييز، على غرار ماقام به العلماء المسلمين، بين حقبتين هامتين: الحقبة المكية والحقبة المدنية.

ثانياً: يميز نولدكه فى داخل الحقبة المكية بين ثلاث فترات:

١ ـ تشتمل الفترة الأولى على سور قصيرة ذات الآيات المفعمة بالصور، إيقاعها قوى وقافيتها مسترسلة. وتدخل فى هذه الفترة الأولى السور التالية: العلق ـ المدثر ـ المسد ـ قريش ـ الكوثر ـ الهُمزة ـ الماعون ـ التكاثر ـ الفيل ـ الليل ـ البلد ـ الشرح ـ الضحى ـ القدر ـ الطارق ـ الشمس ـ عبس ـ القلم ـ الأعلى ـ الشرح ـ العصر ـ البروج ـ المزمل ـ القارعة ـ الزلزلة ـ الإنفطار ـ التكوير ـ النجم ـ الإنشقاق ـ العاديات ـ النازعات ـ المرسلات ـ النبأ ـ الغاشية ـ القيامة ـ المطففين ـ الحاقة ـ الذاريات ـ الطور ـ الواقعة ـ المعارج ـ الرحمن ـ التوحيد ـ الكافرون ـ الفلق ـ الناس ـ الفاتحة.

٢ ـ وتمتلىء الفترة الثانية بقصص الأنبياء. وقد بدأت تظهر خلال هذه الفترة القواعد التى تحمل دلالات التاريخ المقدس. وأصبحت السور القرآنية أكثر طولاً. حيث يُستهل عدد من فقراتها بكلمة «قل». ويبدأ استخدام كلمة الرحمن كصفة من صفات الله. والسور التى تنتمى إلى هذه الفترة المكبة الثانية هى: سورة القمر ـ الصافات ـ نوح ـ الإنسان ـ الدخان ـ ق ـ طه ـ الشعراء ـ الحجر ـ مريم ـ ص ـ يس ـ الزخرف ـ الجن ـ الملك ـ المؤمنون ـ الأنبياء ـ الفرقان ـ الإسراء ـ النمل ـ الكهف.

٣ ـ فى الفترة المكية الثالثة لم يرد ذكر اسم الرحمن، بينما توالت وتكررت قصص الأنبياء. وتنتمى إلى هذه الفترة السور التالية: سورة السجدة ـ فصلت ـ الجاثية ـ الأحقاف ـ الروم ـ هود ـ إبراهيم ـ يوسف ـ غافر ـ القصص ـ الزمر ـ العنكبوت ـ الشورى ـ يونس ـ سبأ ـ الملائكة ـ الأعراف ـ الأنعام ـ الرعد.

الحقبة الثانية الكبيرة هى الحقبة المدنية. حينها كان النبى يقود جماعة منظمة. ولهذا السبب كانت السور المدنية مليئة بالقواعد والتشريعات الصادرة باسم الله. ولقد جاءت هذه القواعد فى أسلوب خالى من الزخرفة أو الصور المجازية وقل الاعتماد على القافية. وحلت عبارة «يا أيها المؤمنون» محل «يا أيها الناس». وكما كان تاريخ جماعة المسلمين أثناء إقامة محمد فى المدينة خلفية لعديد من الآيات المدنية، مما يسهل علينا ترتيب السور والآيات زمنياً.

وتنتمى لهذه الحقبة الآيات: البقرة - البينة - التغابن - الجمعة - الأنفال - محمد - آل عمران - الصف - الحديد - النساء - الطلاق - الحشر - الأحزاب - المنافقون - النور - المجادلة - الحج - الفتح - التحريم - الممتحنة - النصر - الحجرات - التوبة - المائدة.

تستدعى منا هذه المحاولة التى قام بها نولدكه لترتيب السور القرآنية زمنياً عدة ملاحظات:

أولاً: أن التقسيم الثلاثى للحقبة المكية قد اقترح قبل نولدكه من طرف جوستاف فايل Gustav Weil فى كتاب: Historisch - Kritische Einleitung in dem Koran (1ere éd. 1844, 2eme éd. Bielefeld, 1878).

حيث اقترح «فايل» الترتيب الزمنى الآتى:

(١) الفترة المكية الأولى، السور التالية: ٩٦ - ٧٤ - ٧٣ - ١٠٦ - ١١١ - ٣٣ - ٨١ - ٦٨ - ٨٧ - ٩٢ - ٨٩ - ٩٣ - ٩٤ - ١٠٣ - ١٠٠ - ١٠٨ - ١٠٢ - ١٠٧ - ١٠٩ - ١٠٥ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٢ - ٨٠ - ٩٧ - ٩١ - ٨٥ - ٩٠ - ٩٥ - ١٠١ - ٧٥ - ١٠٤ - ٧٧ - ٨٦ - ٧٠ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٢ - ٨٤ - ٥٦ - ٨٨ - ٥٢ - ٦٩ - ٨٣ - ٩٩.

(ب) الفترة المكية الثانية: ١ - ٥١ - ٣٦ - ٥٠ - ٥٤ - ٤٤ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٦ - ٧٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٤٣ - ٧١ - ٥٥ - ١٥ - ٧٦.

(جـ) الفترة المكية الثالثة: ٧ - ٧٢ - ٣٥ - ٢٧ - ٢٨ - ١٧ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ٦ - ٣١ - ٣٤ - ٣٩ - ٤٠ - ٣٢ - ٤٢ - ٤٥ - ١٨ - ١٦ - ١٤ - ٤١ - ٣٠ - ٢٩ - ١٣ - ٦٤.

لو قارنا هذا الترتيب بالترتيب الذى قدمه نولدكه لوجدناهما مختلفين على عدة أصعدة:

١ ـ عدد السور فى كل فترة مكية:

(أ) الفترة الأولى: فايل : ٤٥ ـ نولدكه : ٤٨.

(ب) الفترة الثانية: فايل : ٢٠ ـ نولدكه : ٢١.

(جـ) الفترة الثالثة: فايل : ٢٦ ـ نولدكه : ٢٦.

المجمـــوع: فايل : ٩١ ـ نولدكه : ٩٥.

٢ ـ إضافة إلى أن الترتيب الزمنى للسور فى كل من هذه الفترات مختلف لدى كل منهما.

أما فيما يتعلق بالحقبة المدنية فإن فايل يقدم الترتيب التالى: ٢ ـ ٩٨ ـ ٦٢ ـ ٦٥ ـ ٢٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ٤٧ ـ ٥٧ ـ ٣ ـ ٥٩ ـ ٢٤ ـ ٦٣ ـ ٣٣ ـ ٤٨ ـ ١١٠ ـ ٦١ ـ ٦٠ ـ ٥٨ ـ ٤٩ ـ ٦٦ ـ ٩ ـ ٥.

حيث يصل مجموع السور المدنية لديه إلى ٢٣ سورة، بينما المجموع لدى نولدكه هو ٢٤ سورة، لأنه ضم إلى الحقبة المدنية السورة ٦٤، بينما وضعها فايل ضمن سور الفترة المكية الثالثة. لكن هذه السورة حسبت فى القائمتين القديمتين اللتين وضعهما ابن النديم وابن عبدالكافى ضمن السور المدنية.

الملاحظة الثانية على عمل نولدكه نوردها على لسان المستشرق ريتشارد بيل R. Bell الذى يقول: (Introduction to the Qur'ân, p. 103. Edinburg 1953). «لنا أن نشك فى مايقوله نولدكه، بشأن حصر استعمال الرحمن كاسم خلال الفترة المكية الثانية. من المحتمل أن هذا الاسم قد ذكر فى هذه الفترة لكن لاشىء يثبت أنه تم رفضه».

بالفعل، ليس هناك أى سبب يبرر مثل هذا الحذف خلال إقامة النبى فى مكة. لم يذكر فى القرآن أو فى السنة سبباً يكون قد دفع محمد إلى ذلك. ولايمكن الاعتماد على عدم ذكر اسم الرحمن فى عدد من السور لضمها إلى مجموعة منفصلة تمثل الفترة المكية الثالثة. ثم

أن اعتراض قريش على استخدام هذا الاسم يعود إلى صلح الحديبية (مارس ٦٢٨ ـ ذو القعدة من العام السادس للهجرة). حيث اعترضت قريش على عبارة البسملة بأكملها باعتبارها صفة مميزة للدين الإسلامى.

الملاحظة الثالثة تتعلق بلجوء نولدكه إلى الأسلوب اللغوى للآيات والاعتماد عليه فى ترتيبها زمنياً.

يمكن أن يساعدنا الأسلوب فعلاً على التمييز بين الحقبتين الكبيرتين لكنه لايسعفنا فى ترتيب السور خلال الفترات التى تندرج تحتها. فالحقبة المكية امتدت على اثنتى عشر سنة فقط (٦١٠ ـ ٦٢٢). فكيف يمكن إذن اللجوء إلى عامل الأسلوب فى فترة قصيرة كهذه. فهى غير كافية لبلورة أسلوب ما. ولايمكن إذن الاعتماد على هذا العامل لتقسيم الفترة المكية إلى ثلاث فترات صغيرة. وبالأحرى الاعتماد على المواضيع والظروف المحيطة آنذاك للتمييز بين السور.

٢ ـ هـ . جريم H. Grimme

جاءت محاولة جريم لترتيب سور القرآن بعد محاولة نولدكه فى كتاب «محمد» Mohammed (Munster, 1892 - 95). واعتمد جريم فى محاولته على فكرة تطور القضايا أو المواضيع الدينية: التوحيد، البعث، القيامة.. إلخ. حيث ركز اهتمامه على الحقبة المكية. وساير نولدكه فى ترتيبه للحقبة المكية، فقسمها إلى ثلاث فترات. لكن ترتيبه لهذه الفترات اختلف نوعاً من عن ترتيب نولدكه.

١ ـ فنجد أن جريم لايدرج فى الفترة المكية الأولى السور: ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ١ ـ ٩٧ ـ ١٠٩ ـ ١١٢. فوضع السور ٥١ إلى ٥٦ فى الفترة المكية الثانية. والسور: ١ ـ ٩٧ ـ ١٠٩ ـ ١١٢ فى الفترة المكية الثالثة.

٢ ـ ويدرج السور ١٤ (فيما عدا السور ٣٨ ـ ٤٢ المدنية) و ١٥ ـ ٥٠ ـ ٥٤ ضمن الفترة المكية الثانية.

٣ ـ تنتمى السورة ٧٣ فى ترتيبه إلى الفترة المكية الأولى.

٤ ـ كل السور التى وضعها نولدكه فى الفترة المكية الثانية جعلها جريم تنتمى إلى الفترة المكية الثالثة.

٥ ـ لدى نولدكه ٩٠ سورة مكية و ٢٤ مدنية. أما لدى جريم فنجد ٩٢ سورة مكية و ٢٢ مدنية.

٦ ـ ويختلف الإثنان بشأن الآيات التى ضمت فيما بعد إلى نص السور.

٧ ـ كما أن الفترة المكية الثالثة قصيرة جداً لدى جريم الذى يرى أنها تقتصر خاصة على اقتراب يوم القيامة، وعلى العقاب الذى يسلط على الكفار.

٣ ـ المستشرق موير William Muir :

يوزع موير السور المكية فى الجزء الثانى من كتابه «حياة محمد» Life of Moham-et (p. 132 sqq., 318 - 320)، وأيضاً فى كتابه «القرآن: تكوينه وتعاليمه» The Coran: its composition and teaching (1896, pp 43 - 7) على خمسة مراحل:

١ ـ المرحلة الأولى ويعنى بها السور التى نزلت قبل تكليف محمد بالرسالة.

٢ ـ أقدم السور حتى الإعلان الأول عن رسالته.

٣ ـ من الإعلان الأول لرسالته إلى السنة السادسة من الرسالة (السنة ٦١٦ م).

٤ ـ من السنة العاشرة إلى الهجرة عام ٦٢٢.

ووضع ترتيباً زمنياً جاءت فيه ٩٣ سورة مكية و٢١ سورة مدنية.

● **الحقبة المكية:** ١٠٣ ـ ١٠٠ ـ ٩٩ ـ ٩١ ـ ١٠٦ ـ ١ ـ ١٠١ ـ ٩٥ ـ ١٠٢ ـ ١٠٤ ـ ٨٢ ـ ٩٢ ـ ١٠٥ ـ ٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ١٠٨ ـ ٩٦ ـ ١١٢ ـ ٧٤ ـ ١١١ ـ ٨٧ ـ ٩٧ ـ ٨٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٤ ـ ٨٦ ـ ١١٠ ـ ٨٥ ـ ٨٣ ـ ٧٨ ـ ٧٧ ـ ٧٦ ـ ٧٥ ـ ٧٠ ـ ١٠٩ ـ ١٠٧ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٦٧ ـ ٥٣ ـ ٣٢ ـ ٣٩ ـ ٧٣ ـ ٧٩ ـ ٥٤ ـ ٣٤ ـ ٣١ ـ ٦٩ ـ ٦٨ ـ ٤١ ـ ٧١ ـ ٥٢ ـ ٥٠ ـ ٤٥ ـ ٣٧ ـ ٣٠ ـ ٢٦ ـ ١٥ ـ ٥١ ـ ٤٦ ـ ٧٢ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ١٩ ـ ١٨ ـ ٢٧ ـ ٤٢ ـ ٤٠ ـ ٣٨ ـ ٢٥ ـ ٢٠ ـ ٤٣ ـ ١٢ ـ ١١ ـ ١٠ ـ ١٤ ـ ٤ ـ ٦٤ ـ ٢٨ ـ ٢٣ ـ ٢٢ ـ ٢١ ـ ٢٧ ـ ٢٦ ـ ١٣ ـ ٢٩ ـ ٧ ـ ١١٣ ـ ١١٤.

● **الحقبة المدنية:** ٢ ـ ٤٧ ـ ٥٧ ـ ٨ ـ ٥٨ ـ ٦٥ ـ ٩٨ ـ ٦٢ ـ ٦٩ ـ ٢٤ ـ ٦٣ ـ ٤٨ ـ ٦١ ـ ٤ ـ ٣ ـ ٥ ـ ٣٣ ـ ٦٠ ـ ٦٦ ـ ٤٩ ـ ٩.

هناك بعض الاختلاف بين ترتيب موبير والترتيب الذى إقترحه نولدكه أهمها:

١ ـ يدخل موبير سبع سور من التى يضعها نولدكه فى الفترة المكية الأولى فى المرحلة الرابعة.

٢ ـ ثمانى سور من الفترة المكية الثانية أصبحت تنتمى لدى موبير إلى المرحلة الخامسة.

بتقسيمه الحقبة المكية إلى خمسة مراحل بدلاً من ثلاث فترات زاد موبير المسألة تعقيداً مما صعَّب ترتيب السور زمنياً.

والخطأ الأساسى الذى وقع فيه موبير كما لاحظه نولدكه ـ شفالى (Geschichte des Qorans, 1, p 73. Leipzig 1909). هو أنه إدعى تحديد وضبط الترتيب الزمنى للسور فى كل مرحلة من المراحل الخمسة ومعترفاً فى نفس الوقت أنه لم ينجح كلية فى هذه المهمة. وعلى العكس من هذا وجدنا أن نولدكه قد اعترف منذ البداية أن الترتيب الذى يقترحه تقريبى.

٤ ـ ريجيس بلاشير Régis Blachère:

يعتمد ريجيس بلاشير فى ترجمته للقرآن (Paris 1949, 1951) نفس ترتيب نولدكه ـ شفالى ـ فيما عدا بعض الاختلافات الطفيفة.

١ ـ حيث يضع بلاشير السورة ٥١ و٦٨ فى بداية الفترة المكية الثانية، بينما وضعها نولدكه فى آخر الفترة المكية الأولى. كما يضع السورة ٧٦ فى الفترة المكية الأولى.

٢ ـ يدرج بلاشير السورة ١٧ فى الفترة المكية الثالثة بينما يدرجها نولدكه ـ شفالى فى الفترة الثانية.

٣ ـ ويختلف تتابع السور فى الفترة المكية الأولى لدى بلاشير عنه لدى المستشرقين الألمانيين.

ويفسر بلاشير هذا الاختلاف قائلاً إنه فضل جمع السور التى تتشابه من حيث الموضوع فى مجموعات ثم ترتيب هذه المجموعات على التوالى مما يتجانس أكثر، حسب اعتقاده مع الدعوة وهى فى بدايتها (القرآن، المجلد الثانى، باريس ١٩٤٦، ص ٦). (Le Coran, 11, p 6. Paris, 1949). وأدت هذه الاعتباطية التى اتبعها بلاشير إلى وقوعه فى خطأ تقسيم بعض السور إلى أجزاء ذات تواريخ مختلفة. وخطأه يكمن خاصة فى عدم تقديم أى تبرير علمى أو تاريخى لهذه المبادرة.

ووصل عدد السور القرآنية لديه بسبب هذه التجزئة الاعتباطية إلى ١١٦ سورة بدلاً من ١١٤ سورة. وهو الرقم المتعارف عليه لدى المسلمين وكذلك لدى المستشرقين غير المسلمين!!

هذا الرقم الذى توصل إليه بلاشير جاء من حيث أن جزء كلاً من السورتين ٩٦ و٧٤ إلى نَصين.

(أ) قسم السورة ٩٦ من الآية ١ إلى ٥ وجعلها فى أول الترتيب ثم وضع الآية من ٦ إلى ١٩ فى نَص على حدة وجعل منه السورة ٣٢.

(ب) أما السورة ٧٤ فأصبحت عنده تحمل رقم ٢ ابتداء من آيتها ١ إلى ٧. أما من الآية ٨ إلى ٥٥ فكوّن سورة أخرى أعطاها رقم ٣٦.

٥ - ريتشارد بيل Richard Bell:

تعرض المستشرق ريتشارد بيل لمسألة الترتيب الزمنى للقرآن فى الفصل السادس من كتابه «المدخل إلى القرآن» Introduction to the Qur'ân (Edinburg, 1953).

حيث يبدأ باستعراض محاولات نولدكه معتبراً إياها أكثر المحاولات قبولاً ثم محاولة وليام موبير وجريم وهيرشفيلد وبلاشير وينتهى معترفاً أن التوصل إلى ترتيب شامل لسور القرآن ترتيباً زمنياً أمر يصب التوصل إليه. واقترح أن أفضل وسيلة يمكن اتباعها هى وضع مبادىء عامة يتم من خلالها الترتيب. فتعرض للمبادىء التالية:

١ ـ فى غياب مرجع تاريخى محدد يبقى «الأسلوب» هو المعيار الأدق للتوصل إلى تاريخ تقريبى للسورة. لكن بيل يتراجع عن طرحه هذا معترفاً بصعوبة استخدام معيار الأسلوب.

٢ ـ ونراه يلجأ بعد هذا إلى معيار آخر هو: تركيب الجمل. وهنا تراجع أيضاً قائلاً إن هناك مصادفات من شأنها أن توقعنا فى الخطأ.

لكنه مع هذا يعترض على ترتيب السور ٩٦ (الآية ١ ـ ٥) و٧٤ التى أجمع العلماء المسلمين وكذا المستشرقين على أنها أول وثانى سور الوحى. ويبرر اعتراضه قائلاً إن طريقة نزولها تتطابق أكثر مع المرحلة اللاحقة من رسالة محمد، إذ لم يكن لهذا الأخير فى بداية رسالته أى تصور عن الملائكة!

هذا طبعاً رأى خاطىء. لأن العرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون الملائكة فى دِيانتهم كما أنهم باحتكاكهم مع اليهود والمسيحيين الموجودين فى مكة استطاعوا أن يكوّنوا فكرة عن الموضوع. كيف يُتصور إذن أن محمد لم تكن له أدنى فكرة عن الملائكة؟!

ولم يكتف بيل بهذا القدر من المهاترات بل زاد الطين بلة حين ادعى أن:

(أ) كلمة «نبى» هى فى حقيقة الأمر كلمة مدنية.

(ب) وأن إبراهيم لم يصبح نبياً إلا فى المدينة!

(جـ) أن كلمة إسلام ومسلم والاستعمال الدينى للفعل أسلم ينتمى إلى الحقبة المدنية.

فكل هذه الإدعاءات خاطئة. فكلمة نبى وردت فى السور المكية: ٦ ـ ٧ ـ ٢٥ ـ ٤٣ ـ ١٩ ـ ٣٠ ـ ٧. أما إبراهيم فقد ورد ذكر اسمه كنبى فى السور المكية الآتية: ٦ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٦ ـ ٢٩ ـ ٣٨ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٥١ ـ ٥٣ ـ ٨٧. وقد وردت كلمة إسلام ـ مسلم ـ مسلمون فى ٢١ سورة مكية. فلو اتبعنا منطق بيل لحذفنا من الحقبة المكية ٤٤ سورة وألحقناها بالحقبة المكية. وهذا غير معقول بإجماع كل الباحثين.

الخلاصــة:

لقد كانت هذه مجمل المحاولات التى قام بها المسلمون وكذلك المستشرقون[1] لترتيب القرآن ترتيباً زمنياً. كل هذه المحاولات باءت بالفشل. ولقد كان الكُتّاب المسلمون أكثر حذراً لأنهم اكتفوا بتقسيم ثنائى: سور مكية وسور مدنية. ومع هذا يجب القول أن تتابع السور حسبما جاء فى قوائمهم يظل افتراضياً طالما لم يدعم تاريخياً.

نحن نعتقد - واعتقادنا تؤكده عدة روايات[2] - أن القرآن قد جمع فى جزء واحد بينما محمد على قيد الحياة. هذا الرأى يستند على العوامل التالية:

١ - من المعروف من خلال السيرة والتفاسير القرآنية أن آيات مدنية قد أدرجت فى سور مكية سبقتها.

وهذا يعنى أنه قد وجدت نصوص من السور التى تم جمعها ثم أدخلت عليها فيما بعد آيات نزلت فى المدينة. هذه الآيات كانت تكمل أو تعدل بعض الأفكار الواردة فى سور سابقة.

والمثل على ذلك هو سورة الشعراء المكية التى أضيفت عليها فى نهايتها الآية رقم ٢٢٧ المدنية. ولقد تمت هذه الإضافة لاستثناء الشعراء المسلمين الذين كانوا يدافعون عن الرسول كحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك من الإدانة التى وردت فى السورة المعنية. (انظر الطبرى: التفسير. والسيوطى: أسباب النزول). وتشير الطبعة المصرية للقرآن فى أول السور المكية إلى الآيات المدنية التى أضيفت إليها. (انظر أعلاه، ص ١٢٢ - ١٢٣). كما يعطى الزركشى (البرهان، ١، ص ١٩٩ - ٢٦٣) رصداً كاملاً لهذه الآيات التى أضيفت على سور سبقتها.

٢ - ربما نسخ القرآن الذى جمعت نصوصه فى حياة محمد على رقوق. والقرآن نفسه يتحدث عن ﴿**كتاب مسطور فى رقّ منشور**﴾ (سورة الطور: الآية ٢ - ٣).

كما جاء ذكر الرقّ عدة مرات فى قصائد شعراء الجاهلية. ويروى أن المعلقات السبع

---

(١) انظر Bell (Introduction...) pp 110-113 حيث وضع جدولاً مقارناً جمع فيه كل هذه المحاولات.

(٢) انظر الزركشى: البرهان، الجزء ١، ص ٢٥٦، ١، ١٥، القاهرة ١٩٥٧.

(أو الشعر) قد كتبت على رق وعلقت على الجدران الخارجية للكعبة. كل هذا يثبت إذن أن استعمال الرق كان منتشراً فى مكة وفى المدينة.

يمكن أن يعارض البعض هذا الرأى مستندين إلى الرواية التى تقول إن زيد بن ثابت قد نسخ القرآن على «أجزاء من الورق وعلى الحجارة وعلى ورق النخيل وعظام كتف الإبل، وعلى أشلاء من الجلود»، فأقول إن هذا يتعلق بالوثائق التى تم على أساسها جمع النص النهائى حتى لايطويه النسيان.

أما بشأن التقسيم الثلاثى للحقبة المكية يجب أن نشير أن فايل ثم نولدكه لم يكونوا من السباقين لوضعها. إذ اقترحها قبلهم كُتّاب مسلمون قدامى. فيقول أبو القاسم الحسن ابن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتابه «التنبيه على فضل علوم القرآن»: إن علم التنزيل هو من أرقى علوم القرآن ومنه أماكن التنزيل والترتيب الزمنى للوحى فى مكة: ابتداء ووسطاً وانتهاءً، والترتيب الزمنى للوحى فى المدينة. (ذكره الزركشى: البرهان فى علوم القرآن، ١، ص ١٩٢، القاهرة ١٩٥٧، طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم). فالأسبقية للتقسيم الثلاثى لسور الحقبة المكية تعود إلى النيسابورى وليس إلى فايل ونولدكه.

لكن أ بو القاسم الحسن النيسابورى، أو الزركشى الذى يذكره فى الفترة التى تلى، لايميز بين الفترات المكية الثلاثة التى أشار إليها. إذ جاء تعداده للترتيب الزمنى للسور المكية على النحو الآتى:

أول سورة نزلت فى مكة هى **﴿اقرأ باسم ربك﴾** (رقم ٩٦)، ثم سورة **﴿نون والقلم﴾** (رقم ٦٨)، ثم **﴿يا أيها المزمل﴾** (رقم ٧٣)... ثم يرتب ٨٥ سورة مكية. وبعدها يقوم بتعداد وترتيب ٢٩ سورة مدنية وعلى رأسها سورة البقرة. وهذا الترتيب الذى يقترحه متطابق تماماً مع ترتيب عمر بن محمد بن عبدالكافى المذكور أعلاه (ص ١٢١).

المستشرقون أمثال فايل ونولدكه والآخرين من بعدهم لم يبتكروا شيئاً باقتراح الفترات المكية الثلاثة.

وأخيراً نكتشف أنه من الأفضل التحلى بالحكمة وبالتروى والتواضع عند تناول مثل هذه المسألة. وأفضل درس يمكن استخلاصه هو ذلك الذى يعطينا إياه الزركشى (الجزء الأول، ص ١٩٢). ومفاده أنه من الجائز أن يعطى المرء رأيه بشأن بعض سور القرآن: هل هى مكية أم هى مدنية؟: وأن يقدم تحليله ويستعرض أفكاره حول هذا الموضوع.

الفصل الحادى عشر

مشكلة الألفاظ غير العربية فى القرآن

لقد أثيرت مسألة الألفاظ غير العربية فى القرآن منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) حيث دخل الفقهاء المسلمون فى مجادلات واسعة بين مؤيد ومعارض:

(أ) لابد أن نذكر من بين المعارضين الشافعى (المتوفى فى ٢٠٤هـ/٨٢٠م) مؤسس المذهب الشافعى، وأبو عبيدة (المتوفى فى ٢١٠هـ/٨٢٥م) عالم فقه اللغة، ومحمد بن جرير الطبرى (المتوفى عام ٣١٠هـ/٩٢٣م) المؤرخ الكبير وأشهر مفسرى القرآن، وأبو بكر بن الطيب الباقلانى (المتوفى عام ٤٠٣هـ/١٠١٤م) الفقيه الأشعرى، وأبو الحسين بن فارس (المتوفى عام ٣٩٥هـ/١٠٠٥م) عالم فقه اللغة.

كل هؤلاء يعارضون بشدة الفكرة القائلة بأن القرآن يحتوى على ألفاظ أجنبية. ويؤسسون رفضهم على نص الآية ٢ من سورة يوسف **﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾** وكذلك على نص الآية ٤٤ من سورة فصلت **﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فُصلت آياته أعجمى وعربى...﴾**. ويضيف هؤلاء العلماء والفقهاء أنه لو رأى العرب فى القرآن لغة غير مألوفة لديهم لتذرعوا بعدم معرفتهم وفهمهم للغته.

(ب) ونذكر من بين القائلين بوجود ألفاظ غير عربية فى القرآن عبدالله بن عباس (المتوفى عام ٦٨هـ/٦٦٨م) وتلميذه عكرمة (المتوفى عام ١٠٥هـ/٤-٧٢٣م)، وأبو موسى الأشعرى (المتوفى عام ٤٢هـ/٦٦٢م). ووضع هؤلاء قوائم للألفاظ غير العربية. فوجد المعارضون أنفسهم أمام أمر واقع وهو أن هذه الألفاظ القرآنية توجد أيضاً فى لغات أجنبية. لكنهم لم يلبثوا أن فسروا هذه المصادفة قائلين على غرار الطبرى أن هذه الألفاظ المستعملة فى لغات أخرى تعود إلى أن مختلف اللغات قد تشير إلى نفس المسمى وأن هذه الألفاظ المنتمية للغات أخرى ماهى إلا نتاج المصادفة البحتة التى تجعل عدة لغات تستخدم ألفاظاً متشابهة للإشارة إلى مسمى واحد. فيحدث أن يستعمل العرب والفرس والأحباش

نفس المصطلح لتعيين شيء واحد. (ذكر في الزركشي: البرهان، الجزء الأول، ص ٢٨٩، القاهرة ١٩٥٧). وقد اتبع أبو عبيدة نفس الرأى كما جاء على لسان ابن فارس (ذكر فى الزركشي، نفس المرجع، ١، ص ٢٨٩).

ويعترض ابن عطية (المتوفى عام ٥٤٦هـ/١١٥١م) فى مقدمة كتابه «حول تفسير القرآن»[1] (ص٢٧٧) على رأى الطبرى قائلاً أن التفسير القائل بأن اللغتين توافقتا كلمة كلمة تفسير بعيد عن الحقيقة. ففى الواقع تكون واحدة مصدراً وأصلاً أما الثانية فاشتقاقاً فى أغلب الأحيان. ليس الغرض هنا تفنيد احتمال المصادفة كلية، لكن القول بأنها لايمكن أن تحدث إلا فى حالات نادرة واستثنائية (ذكر فى الزركشي، نفس المرجع، ١، ص ٢٩٠).

وقد جمع أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى عام ٢٢٤هـ/٨٣٩م) بين هذين الرأيين المتعارضين قائلاً إن الرأى الصحيح هو القبول بالرأيين. فهذه الألفاظ المتشابهة بين القرآن واللغات الأجنبية هى فى حقيقة الأمر ألفاظ أجنبية كما يقول الفقهاء. لكنها وصلت إلى العرب الذين عربوها وهضموها فى لغتهم حتى أصبحت ألفاظاً عربية. وعندما نزل القرآن كانت هذه الألفاظ قد دخلت فى لغة العرب. واستناداً على هذا فإن من يقول إن هذه الألفاظ عربية محق. ومن يقول إنها أعجمية فهو كذلك محق. (ذكر فى الزركشي، نفس المرجع، ١، ص ٢٩٠).

أما ابن فارس الذى ذكر رأى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه «الصاحبى» (ص٢٩) فينحاز لهذا الحل الوسط.

ويبقى أن تفسير ابن عطية هو أكثر التفاسير عبقرية. إذ يقول فى مقدمة كتابه «حول تفسير القرآن» (ص ٢٧٧): إنه يمكن تفسير هذا التطابق من حيث أن العرب العاربة الذين نزل القرآن بلغتهم قد احتكوا نوعاً ما بلغات أخرى بفعل التجارة ورحلات الصيف والشتاء القريشية. وكذلك بفعل الأسفار، مثل سفر أبى عمر لسوريا وسفر عمر بن الخطاب، وسفر عمرو بن العاص وعميرة بن الوليد للحبشة وسفر الأعشى للحيرة واختلاطه بالمسيحيين

(١) الجامع المحرر... الوجيز فى تفسير القرآن العزيز (v. GAL, 412).

هناك. ويسبب كل هذه العوامل استعار العرب ألفاظاً أجنبية وغيروا بعضها بحذف بعض أحرفها لتخفيف نطقها. كما استعملوها فى أشعارهم وحواراتهم حتى اكتسبت هذه الألفاظ طابعاً عربياً صافياً ودخلت فى نسيج اللغة العربية. وفى هذه الحال استخدمها القرآن أيضاً. فالحقيقة كما يقول ابن عطية هى أن هذه الألفاظ أعجمية فى الأصل عرّبها واستخدمها العرب. وبالتالى فهى عربية. (ذكر فى الزركشى، نفس المرجع، ١، ص ٢٨٩).

إنه حل وسط، ومقبول فوق ذلك.

● قائمة الزركشى (المتوفى عام ٧٨٤هـ/١٣٩١م):

نعرض فيما يلى قائمة الزركشى التى قدمها فى كتابه «البرهان» (الجزء الأول، ص ٩ - ٢٨٨) دون ترتيب. ونحن نرتبها هنا وفقاً لانتماء الألفاظ لكل لغة.

١ - من اللغة اليونانية:

(أ) طفق = يفعل الشىء.

(ب) قسط وقسطاس = العدل.

(جـ) رقيم = المائدة.

(د) سرىّ = النهر الصغير.

٢ - من اللغة الفارسية:

(أ) استبرق = بالفارسية استبره = القماش الغليظ.

(ب) سجل = الكتاب، الدفتر.

٣ - من العبرية:

(أ) هدنا = توبنا.

(ب) طاها = ضع رجلك يارجل!

(جـ) أليم = موجع.

٤ ـ من السريانية:

طور = الجبل.

٥ ـ من النبطية:

سينين = الجميل، الطيب.

٦ ـ من الأمهرية:

(أ) ناشئة = القيام أثناء الليل.

(ب) كفلين = مرتين.

(جـ) قسورة = الأسد.

(د) مشكاة.

(هـ) درىّ.

٧ ـ من الهندية:

(أ) سندس.

(ب) الآخرة.

(جـ) ورائهم.

(د) يمّ.

(هـ) بطائنها.

٨ ـ من لغة المغرب:

(أ) مُهل.

(ب) يشار.

(جـ) إنـا.

(د) اب.

المجموع ٢٥ لفظاً غير عربى.

إن هذه القائمة تثير عدة تساؤلات أهمها:

أولاً: ما المقصود بلغة المغرب؟ فى خضم دراسته لكلمة «محل» أشار السيوطى (الإتقان، ص ٣٢٥، كالكوتا، ٤ ـ ١٩٥٢، الجزء الأول، ص ١٤٠) القاهرة ١٩٣٥) إلى أن لغة المغرب هى لغة البربر. ويذكر فى موضع أخر (ص ٣٢٣، كالكوتا، ص ١٣٩، القاهرة) إنها لسان أهل أفريقيا. لكن أرثر جيفرى «الكلمات الأجنبية فى القرآن» The foreign vocabulary of the Qur'ân, p. 31, Baroda, 1938)، فيعتقد أنه من الداعى للسخرية التفكير فى أن اللغة العربية فى عهد الجاهلية أو أثناء الوحى قد تأثرت بأى عنصر من عناصر اللغة البربرية... كل مافى الأمر أن مثل هذه الألفاظ ظلت بالنسبة لعلماء المسلمين آنذاك لغزاً. ولم تكن عبارات لسان المغرب أو لغة البربر إلا ستار يخفون وراءه عجزهم.

ثانياً: لماذا وضع ابن عباس وعكرمة وأبو موسى الأشعرى قوائم للألفاظ غير العربية وهم لايتقنون اللغات الأجنبية التى يرجعون إليها هذه الألفاظ؟ هل استشاروا من هو على دراية بهذه اللغات؟ ويبدو أن الجواب هو نعم. لأن تفسير المعانى الذى يعطونه صحيح. مثلما هو الحال بالنسبة للفظ قسط وقسطاس. فقسطاس لفظ مشتق من الكلمة اليونانية dikastès ومعناها القاضى مثلما يقترحه فولر (Vollers in ZDMG, 1, 633) أما مينجانا Mingana (Syriac influence on the style of the Kur'ân, in Rylands Bulletin, 1927)، فيقترح أن هذا اللفظ مشتق من الكلمة اليونانية xetès (المستعار من اللفظ اللاتينى sextarius) حيث تدل على وحدة وزن.

لكن الغريب فى الأمر أن الألفاظ الثلاثة التالية التى افترض فيها انتمائها للغة اليونانية لم يعثر على مصدر اشتقاقها. هذا لأن الألفاظ الثلاثة: طفق، رقيم، سرىً لاتحمل طابعاً أجنبياً بل أن لها أوزاناً عربية صافية. فما الذين دفع هؤلاء العلماء إلى رصدها من بين الألفاظ الأجنبية؟!

هل يكون السياق التاريخى لقصة أهل الكهف التى عرف أنها حدثت فى بلاد الروم هو الذى جعل العلماء يفكرون فى أن لفظ «رقيم» أجنبى؟

لكن لايوجد فى المقابل أى تبرير بالنسبة للفظين طفق وسرىً. فالأول يرجع إلى قصة آدم وحواء بعد الخطيئة، أما الثانى فمرتبط بقصة مريم وهى على وشك أن تضع المسيح.

ثالثاً: لماذا نسى هؤلاء العلماء الإشارة إلى ألفاظ تحمل الطابع الأجنبى مثل الكلمات ذات الأصل اليونانى:

دينار (سورة ٣، ٦٨) = Dênarion.

درهم (١٢، ٢٠) = Drakhmé.

قنطار (٣، ١٢، ٦٨ ـ ٤، ٢٤) = Kentênarion.

إبليس (٢، ٣٢ ـ ٧، ١٠ ـ ١٥، ٣١، ٣٢ إلخ) = Diabolos.

سيما (٢، ٢٧٤ ـ ٧، ٤٤، ٤٦ ـ ٤٧، ٣٢ ـ ٤٨، ٢٩، ٥٥، ٤١) = Sèma.

صراط (٤٥ مرة فى القرآن) = Strata.

قرطاس (٦، ٧، ٩١) = Khartès.

رابعاً: لماذا لم يثبت من يعارضون وجود ألفاظ أجنبية فى القرآن أن الألفاظ المعنية عربية وأنها لم تشتق من اليونانية أو غيرها.

ولماذا لم يلجأ هؤلاء إلى المترجمين الذين أتقنوا اليونانية والسريانية ابتداءً من نهاية القرن الثانى من الهجرة للاستعانة بهم؟

أما فيما يتعلق بالألفاظ التى وردت فى المجموعة (ب) إلى (د) فإننا نلاحظ أن:

١ ـ فى المجموعة (ب) الاشتقاق صحيح.

٢ ـ فى المجموعة (ت) الاشتقاق خاطىء بالنسبة للألفاظ الثلاثة.

٣ ـ فى المجموعة (ث) اشتقاق كلمة طور صحيح.

٤ ـ فى المجموعة (ج) اشتقاق كلمة «سينين» غير صحيح، إذ يبدو أن هذه الكلمة التى وردت فى السورة (٩٥، ٢) ماهى إلا تحريف لكلمة «سينى» استوجبه الوزن.

٥ ـ فى المجموعة (ح) نجد أن اشتقاق كلمة «مشكاة» صحيح، بينما اشتقاق الكلمات الأخرى خاطىء. (انظر Jeffrey: The foreign..., p 32, 266).

٦ ـ فى المجموعة (خ) هناك عدة آراء بالنسبة لكلمة «سندس»، إذ يرى فرايتاج (Freytag, lexicon) ودفوراك (Dvorak, Femduorter, 72) أنها كلمة فارسية. بينما يقارنها فرانكل (Fraenkel, Fremdworter, 4) بالكلمة اليونانية Sindôm (رداء يرتدى خلال طقوس تمجيد الإله ديونيزوس Dionysos).

٧ ـ بالنسبة للمجموعة (د) المنسوبة إلى القبطية فإننا نلاحظ أن نسبة الألفاظ (١) و(٢) و(٤) إليها مدعاة للسخرية. أما كلمة (يَّ) فهى موجودة فى اللغة المصرية واللغة القبطية (انظر Jeffrey, p 293).

٨ ـ وليس لنا أى تعليق بشأن المجموعة (ذ) الخاصة بالألفاظ المنحدرة من لغة المغرب أى البربرية.

● قائمة السيوطى (المتوفى ٩١١هـ/١٥٠٥م):

أباريق: بالفارسية.

أبّ: عشب، بلغة المغرب.

ابلعى: يبلع بالأمهرية.

أخلد: يستريح، بالعبرية.

آرائك: سرائر، بلغة إبراهيم.

آذر: مخطىء! بلغة إبرهيم.

أسباط: قبائل، بالعبرية.

استبرق: رداء، خشن بالفارسية.

أسفار: كتب، بالسريانية.

إصرى: وصيتى، بالنبطية.

أكواب: ج كوب، بالنبطية.

إل: اسم الله، بالنبطية.

أليم: موجع، بلغة الزنوج (حسب الجوزى) وباللغة العبرية (حسب شيذله).

إناه: الطهو، باللغة البربرية.

أواه: مقتنع، بالأمهرية (وفقاً لابن العباس)، و(رحيم) بالأمهرية (وفقاً لعمرو بن شرحبيل) و(الذين يصلى كثيراً) بالعبرية (وفقاً للواسطى).

أوّاب: الذى يتعبد بسبحة، بالأمهرية.

الأولى والآخرة: بالقبطية.

بطائنها: خارجى، بالقبطية.

بعير: بعير، بالعبرية.

البيعة والكنيسة: كنيسة ومعبد يهودى، بالفارسية.

تنور: موقد، بالفارسية.

تبير: بالنبطية.

تحت: ومعناه فى الآية الخاصة بمريم **﴿فناداها من تحتها﴾**، ومعناها: البطن، بالنبطية.

الجبت: اسم الشيطان، بالأمهرية.

جهنم: بالفارسية، والأمهرية.

حرم: إجبارى، بالأمهرية.

حصب: حطب جهنم، بلغة الزنوج.

حطة: (قولوا) ماهو صحيح، التحدث بدقة، بالعبرية.

حواريون: المبيضون، بالنبطية.

حوب: الخطيئة، بالأمهرية.

دارست: يدرس، بالعبرية.

درىّ: مضيىء، بالأمهرية.

دينار: بالفارسية.

راعنا: شتيمة، بالعبرية.

ربانيون: الحاخامات، بالسريانية والعبرية.

ربيّون: ألف، بالسريانية.

الرحمن: بالعبرية رخمن، وفقاً للمبرد والثعلب.

الرّس: البئر، بالأعجمية (الفارسية؟).

الرقيم: باليونانية: الحبل (شيذله).

رمزاً: بتحريك الشفتين، بالعبرية.

رهوا: هادىء، بالنبطية أو السريانية.

الروم:

زنجبيل: بالفارسية.

السجل: الرجل، بالأمهرية (وفقاً لابن عباس)، والكتاب (وفقاً لابن جنّى)، وهناك من يقول إنها كلمة فارسية.

سجيل: كلمة فارسية مكونة من كلمتين: حجر وطين. ويقول أبو حاتم (كتاب: الزناة) إنها كلمة أعجمية.

سرداق: بالفارسية: سابرده ومعناها ستائر المنزل.

سريًا: نهر، بالسريانية أو النبطية أو كما يذكر شيذله يونانية.

سَفرة: قراء، بالنبطية.

سقر: جهنم، بالفارسية.

سُجداً: برءوس مغطاة، بالسريانية.

شكرا: الخل، بالأمهرية.

سلسبيل: ويقول الجواليقى إنها كلمة أعجمية.

سنا: ذكرها ابن حجر ولم يشر إليها كُتّاب آخرون.

سندس: الديباج الرقيق، بالفارسية وفقاً للجوالقى، بينما يقول شيذله إنها كلمة هندية.

سيّدها: زوجها، بالقبطية.

سينين: جميل، طيب، بالنبطية.

سناء: جميل، طيب، بالنبطية.

شطر: (فى شطر المسجد)، فى اتجاه.. بالأمهرية.

شهر: شهر، بالسريانية.

الصراط: الطريق، الدرب، باليونانية.

صُرْهُن: يقطع إرباً، بالنبطية.

صلوات: معابد اليهود، بالعبرية.

صــه: أيها الرجل، بالنبطية أو الأمهرية.

طفقا: شرعوا فى، باليونانية (وفقاً لشيذله).

طوبى: اسم الجنة، بالأمهرية.

طور: جبل، بالسريانية أو النبطية.

طوى: أثناء الليل، أو هو اسم رجل بالعبرية.

عبدت: (جاءت فى عبدت بنى إسرائيل): قتلوا، بالنبطية.

عدن: (جنات عدن): حدائق كروم، بالسريانية أو باليونانية (كما جاء فى تفسير جويبر).

العرم: النهر، بالأمهرية.

غساق: بارد ومتجمد، بالتركية.

فردوس: حديقة، باليونانية أو حقل كروم، بالنبطية.

فوم: قمح، بالعبرية.

قراطيس: ويعتبرها الجواليقى كلمة غير عربية.

قسط: العدل، باليونانية.

قسطاس: عدل أو ميزان، باليونانية.

قسورة: الأسد، بالأمهرية، كما جاء عند ابن العباس.

قطنا: كتابنا، بالنبطية.

قفل: قفل، بالفارسية.

قُمَّل: قُمَل، بالعبرية.

قنطار: ويشير الثعالبى (فقه اللغة) أنها كلمة يونانية معناها: ميزان من ١٢ ألف أوقية. وعن ابن قتيبة هو ميزان مقداره ١٨ ألف مثقال بلغة أهل أفريقيا.

القيوم: الذى لاينام، بالسريانية.

كافور: كافور، بالفارسية.

كفّر عنا: إمحى لنا، بالنبطية أو العبرية.

كفلين: مرتين، بالأمهرية.

كنز: كنز، بالفارسية.

كوّرت: يغطس فى، بالفارسية.

لينة: نخلة، بلغة يهود يثرب.

مجوس: يقول الجواليقى إنها كلمة غير عربية.

مرجان: يقول الجواليقى إنها كلمة غير عربية

مسك: مسك، بالفارسية.

مشكاة: مشكاة، بالأمهرية.

مقاليد: مقاليد مفاتيح، بالفارسية.

مرقوم: مكتوب، بالعبرية.

مزجاة: كمية قليلة أو (قيمة قليلة) بالفارسية أو النبطية.

ملكوت: بالنبطية Malkûtâ.

مناص: مفر، بالنبطية.

منسأة: عصا، بالأمهرية.

مهل: ثقل الزيت، بالبربرية.

ناشئة: سهر الليل، بالأمهرية.

ن: بالفارسية ـ أنون: إفعل ماتشاء.

هُدنا: تبنا، بالعبرية.

هود: يهود، كلمة غير عربية.

هون: (يمشون على): حكماء، بالسريانية أو العبرية.

هيْت لك: تعالى!، بالقبطية، أو السريانية أو الحرانية، أو العبرية.

وراء: أمام، بالنبطية.

وردة: يقول الجواليقى إنها كلمة غير عربية.

وَزَر: حبل، ملجأ، بالنبطية.

ياقوت: كلمة فارسية.

يحور: (ظن أن لن يحور) يعود، بالأمهرية.

يس: أيها الرجل، بالأمهرية.

يصدون: كلمة أمهرية.

يصهر: يطهى جيداً، بلغة المغرب أو بالقبطية كما يقول شيذله.

اليمّ: كلمة سريانية (ابن قتيبة)، عبرية (ابن الجوزى)، قبطية (شيذله).

اليهود: كلمة غير عربية عربت وأصلها عبرى.

المجموع: ١١٨ كلمة غير عربية.

يتباهى السيوطى بكونه جمع هذا العدد الهائل من الكلمات غير العربية الموجودة فى القرآن.

ويقول بعد ذلك إن «القاضى تاج الدين بن السبكى» قد ألّف أبياتاً شعرية من ٢٧ لفظاً من هذه الألفاظ. ثم أكملها ابن حجر بقصيدة أخرى احتوت على ٢٤ لفظاً إضافياً. وأخيراً ألّف السيوطى قصيدة أخرى وضع فيها الألفاظ المتبقية أى حوالى ٦٠ لفظا. ويستشهد السيوطى بهذه القصائد الثلاثة فى كتاب (الإتقان، الجزء الأول، ص ١٤٠ ـ ١٤١، القاهرة، ١٩٣٥). وهى بنفس الوزن وبنفس القافية.

كما يشير السيوطى إلى أنه ألّف كتاباً خصصه لهذه المسألة بعنوان «المهذب فى ماوقع فى القرآن من المعرب».

●● اقتراحاتنا:

لقد بذل هؤلاء الكُتّاب جهوداً معتبرة لتفسير اشتقاق عدد كبير من هذه الألفاظ الأجنبية التى احتواها القرآن. ونجدهم أحياناً يقترحون عدة اشتقاقات لكلمة واحدة.

ونقترح عليكم الآن تصحيحاً لبعض التخمينات التى قاموا بها وتكملة لقوائمهم.

لقد اكتشفنا مصدراً آخر تناسوه تماماً ألا وهو اللغة اللاتينية. فقد كان للروم حضوراً فى الجزيرة العربية خلال السبع قرون التى سبقت ظهور الإسلام. وإن كانت اليونانية منتشرة بشكل واسع بين شعوب هذه المنطقة فإنه لايمكن إنكار أن اللغة الرومانية كانت متواجدة بقدر جعلها تدخل فى نسيج اللغة المحلية.

وعلينا أن نشير هنا أن كلمة (رومية) تدل على اليونانية واللاتينية على حد سواء.

ولهذا يتعين علينا البحث فى هاتين اللغتين كلما ذكر الزركشى أو السيوطى فى قوائمهما أن أصل اللفظ رومى. وتوصلنا باتباع هذا المنهج إلى النتائج التالية:

١ ـ قسط، قسطاس:

نعتقد أن هذين اللفظين، وهما فى الحقيقة لفظ واحد، ليسا من أصل يونانى ولم يشتقا من كلمة (dikastês = قاضى) كما اقترح ذلك فولر (Vollers in ZDMG, 1, 633)

ولا من كلمــة extês اليونانية كذلك (وهى مكيال رومانى) مثلما اقترحه مينجانا (Mingana). حيث أكد مفسرو القرآن وجاء فى القائمتين أن كلمة قسطاً أو قسطاس تعنى بالرومية: العدالة. فلا كلمة dikastês = قاضى ولا كلمة xestês = مكيال تؤدى إلى هذا المعنى.

لهذا نقترح أن أصل هذين اللفظين القرآنيين يعود إلى الكلمة اللاتينية Justus أو Justitia (العادل، عدالة). فهذه الكلمة تنطبق تماماً مع اللفظين القرآنيين خاصة لو نطقنا القاف كالّف مثل ماهو جارى عليه فى اللهجة العامية. وشكل الكلمتين قسط وقسطاس مرده إلى ترك أو حذف الحركة الأخيرة فى الكلمة اللاتينية (us -). وهى ظاهرة معتادة فى تعريب الألفاظ اليونانية واللاتينية (مثلاً كلمة سقراط Socratés تعرب أحياناً بالحركة سقراطيس وأحياناً أخرى بدونها لتصبح سقراط).

٢ - بـــرج:

هذه الكلمة التى تجاهلها جيفرى Jeffrey وآخرون ترجع إلى الكلمة اللاتينية burgus، التى تعنى الحصن المنيع والتى استعملها الكاتب العسكرى فيجيتيوس ريناتوس Vegetius Renatus (Végèce) خلال حياته مابين القرن الرابع والخامس بعد الميلاد، فى كتابه Epitoma rei militaria (IV, 10).

٣ - الكهــف:

هذا اللفظ الذى لم تشر إليه القوائم ماهو إلا اشتقاق من الكلمة اللاتينية: Cavea التى تعنى الجوف. (Pline l'Ancien, Naturalis Historia, livre XI, par. 3).

٤ - قنطــار:

إنها كلمة لاتينية أصلها centum librae (مكيال قدره ١٠٠ رطل) تحولت بعد ذلك إلى كلمة: quintal أو quintalium ومنها الكلمة الفرنسية quintal.

٥ ـ سـراط:

وأصلها الكلمة اللاتينية Strata والمقصود منها الدرب المبلّط أو الطريق العريض.
(Eutropius, fin du 4ème siècle: Breviarium historiae Romanae, éd. Rûhl, 1887, IX, 15; St Augustin, Sermones, éd. Mai IX, 21).

ويتبقى لنا إذن ثلاث ألفاظ ذكرت فى قائمتى الزركشى والسيوطى كألفاظ رومية وهى التى أشار إليها شيذله: سرىّ، رقيم، طفقا. لم نستطع العثور على الأصل اللاتينى أو اليونانى لهذه الألفاظ. وتجدر الإشارة فيما يتعلق بكلمة رقيم أنها فسرت بمعانى مختلفة من طرف مفسرى القرآن. وقد وردت فى الآية ١٨ من سورة الكهف.

كما اختلف المستشرقون فى معناها. إذ يعتقد تورى Torrey أن هذا اللفظ ينطبق على Deccius الإمبراطور البيزنطى (٢٤٩ ـ ٢٥١) الذى لجأ فى عهده الشباب المسيحيون السبع إلى كهف قرب منطقة إيفاز Ephèse. ويفترض هوروفيتز (Horovitz, Koranishe Vntersuchungen. p. 95) أن كلمة رقيم ماهى إلا نقش حفر على ساحة الكهف. وهذا الافتراض خاطىء طبعاً مثل افتراض تورى (in Qrieutal Studies presented to E.G. Browne, 1922, p. 457 - 9).

أما كلمة طفقا ومنها الفعل طفق فتفسرها المعاجم العربية كالآتى: طفق، يفعل الشىء أو يستمر يفعله. فالفعل طفق من أفعال المقاربة.

فلماذا حيّرت هذه الكلمة شيذله لدرجة أنه راح يبحث لها عن أصل يونانى؟!

يبقى لفظ سرىّ الذى لو استعمل كصفة يفهم منه التألق والعظمة. لكننا نجد فى المعاجم العربية معنى آخر هو الجدول الصغير الذى يحفر حول النخلة (Dict. arabe - français de Kazimirokî).

فالمعنى الذى تضمنته قائمتى الزركشى والسيوطى هو الذى جعل شيذله يعتقد أن أصل كلمة سرى يونانى (أو لاتينى).

ونقرأ فى لسان العرب لابن منظور: «السرى: النهر (عن ثعلب) وقيل: الجدول، وقيل:

النهر الصغير كالجدول يجرى إلى النخل. والجمع أسرية وسريان، حكاها سيبويه.... وروى عن ابن عباس أنه قال: السرىّ الجدول، وهو قول أهل اللغة. وأنشد أبو عبيد قول لبيد يصف فيه نخلاً نابتاً على ماء النهر:

سحقٌ يمتّعها الصّفا وسرية عمٌّ نواعم بينهن كرومُ

إن هذا البيت الشعرى يجعلنا نفترض أن كلمة سرى قد دخلت فى نسيج اللغة العربية قبل مجىء الإسلام، بمعنى الجدول الذى يجرى عند قاعدة النخل.

لقد بحثنا دون جدوى عن كلمة لاتينية أو يونانية يشبه تركيبها لتركيب الكلمة سرى. ولم نجد مايعادل معنى «الجدول» سوى الكلمات اليونانية: ochetos, hudragôgos, sôlên. واللاتينية: canalicus, canalis, fossa, sulcus, rivus, euripus, elicés, incilia.

لاتوجد فى هذه الكلمات واحدة تقترب من كلمة سرى. وربما أقربها إليها كلمة Sôlên اليونانية وكلمة sulcus اللاتينية، لكنهما مع ذلك تظلان مختلفتان عنها كثيراً إلا إذا افترضنا أن الكلمة العربية قد حُرِّفت تماماً عن الأصل.

الفصل الثانى عشر

حول العبارة القرآنية: «يا أخـــت هـــارون»

(أ) ريلاند Reland ودفاعه عن الإسلام

دفعت، على هامش دراستى عن الدين عند كانط (الجزء الرابع، فى تناولنا لمذهبه) إلى البحث عن المصادر التى استند إليها هذا الفيلسوف فيما يتعلق بالإسلام والتى أشار إليها عدة مرات فى عمله(١). ومن هنا بدأت أهتم بالعمل القدير والقيم الذى قام به أدريان ريلاند Adrien Reland (الذى ولد فى هولندا الشمالية عام ١٦٧٦ وتوفى فى مدينة اولترشت Ultrecht عام ١٧١٨). وخاصة كتابه «الديانة المحمدية» De Religione Mohammadica (premiére édition 1705, 2eme edition 1717)(2).

لقد شدنى فى هذا الكتاب اعتداله وموقف مؤلفه الموضوعى إزاء الإسلام وإزاء النبى محمد. وهو موقف يثير فعلاً الانتباه بعد سلسلة من المهاجمين توالت منذ القرن الثالث عشر (وحتى قبل ذلك) حتى نهاية القرن السابع عشر(٣).

لقد كتب ادريان ريلاند فى كتابه الذى أهداه إلى أخيه بيار ريلاند (المحامى فى امستردام) أنه طالما أن الإسلام هو على تلك الصورة التى رسمها لها المهاجمين المسيحيين الأوروبيين كيف يمكن تفسر إذن «أن عدداً كبيراً من الأمم المختلفة اعتنقت ديناً بهذا الغباء؟ اللهم إذا نظرنا إلى المحمديين كحيوانات غبية. وكيف يمكننا تبنى هذه النظرة إذا تفحصنا آثار وكتابات هذه الطائفة؟ التى مثلما هو ظاهر، برهنت على عبقرية وعمق لم يوجد له مثيل لدى شعوب أخرى. إن العرب الذين ولد هذا الدين فى ديارهم قد امتلكوا

---

(1) Immanuel Kant: Werke.

(2) Adriani Relandi: Die Religioni Mohammedicae, ex codice manuscripto arabice editum, latine versum, et Notis illustratiem p[osterior examinat nonnulla, quae falso Mohammedanis tribuntur. Ultrajecti, ex officina Guliehni Brocdelet, 1705.

(٣) راجع العرض القصير والمفيد (نورمان دانيال: الإسلام والغرب
Norman Daniel: Islam and the West. Edinburg, 1958.

علماً وفنوناً لعدة قرون وخاصة خلال القرن العاشر، بينما ترك المسيحيون كل شيء يذبل ويموت ويتبلد فى غربنا»[١].

فحمل ريلاند على نفسه إذن دراسة الدين الإسلامى معتمداً على المصادر العربية مما جعله يحيط بالإسلام بشكل مختلف عما كان سائداً فى الغرب. «يجب أن أعترف بعد أن فحصت الإسلام فحصاً عقلانياً، أننى وجدت فيه وجهاً آخر مختلف عن ذلك الوجه المنسوب إليه. مما دفعنى إلى السعى للكشف عن المعنى الحقيقى للعالم بكل الألوان التى تناسبه»[٢].

لقد توصل ريلاند Reland متشبعاً بهذا الفكر، إلى نتائج وأحكام صحيحة ومتوزنة مقابل آراء الكتاب المعاصرين بآلاف الأميال. لقد كان الأجدر بهؤلاء الإطلاع على ماكتبه ريلاند قبل أن يطلقوا مهاتراتهم.

لقد كان ريلاند من ديانة بروتستانتية، لكنه لم يعمد إلى الكشف على حقيقة الإسلام من منطلق أن البابويين "Papistes" يقارنون البروتستانت بالمسلمين. بل كان دافعه كما يقول هو «البحث عن الحقيقة حثيما وجدت، إن إغلاق الباب أمام الأكاذيب من كل صوب مهمة جديرة بالثناء فى كل وقت، إذ تكشف للناس عن ديانة منتشرة غير محرّفة لاتثقلها سحب الغيبة والتغليط. ديانة تظهر للناس بشكلها الحقيقى الذى يلقن فى معابد ومدارس المحمديين. من هذا المنطلق فقط يمكننا إذن مهاجمتها بنجاح. وإن لم نستطع تدميرها داخل كيان الأتراك وغيرهم من الكفار فإننا سنستطيع على الأقل تدمير وجودها فى فكرنا».

ثم يسرد التشابهات بين مذهب لوثر Luther وبين المحمديين. وهى التشابهات التى التقطها كاتب باسم فيفالدو. ونوجز هذه التشابهات فيما يلى:

١ ـ لقد تباهى محمد بإتيان الإنجيل الحقيقى الوحيد، أى مايجب الأخذ به فى العهد القديم والعهد الجديد، ونفى باقى ماجاء بهما.

---

(١) ص ١٦٣ هـ.

(2) Trad. - Citée. p VII.

وبالمثل تجرأ الكافر لوثر على القول أن ألمانيا لم يكن لديها من قبل إنجيل.

٢ ـ ينقسم الإسلام إلى ٧٠ طائفة وكذلك الإنجيليون.

٣ ـ لقد أمر محمد بأن يحكم فى الأمور وفقاً لكتاباته، وهكذا فعل أهل البدع أى أنصار لوثر.

٤ ـ اقتطع محمد من الصيام عشرة أيام وحصره على شهر واحد، أى شهر رمضان، وفى المقابل لم يكتف لوثر بتغيير الصيام بل ألغاه تماماً مثلما ألغى كل أنواع الصيام.

٥ ـ استبدل محمد الأحد بالجمعة. ومن جهته عارض لوثر كل تمجيد للأعياد.

٦ ـ لقد دمر محمد الصور أما أنصار لوثر فلقد دنسوها ورموها.

٧ ـ يسخر محمد من التبجيل بالقديسين، وهذا مافعله أنصار لوثر كذلك.

٨ ـ لم يسمح محمد بالتعميد، أما كالفين Calvin فلم يرى فيه أية ضرورة.

٩ ـ يتزوج المحمديون بأى عدد يريدون من النساء، أو على الأقل بأى عدد يستطيعون إعالته، ويوافق بوسر وأولدورب Bucer et Olemdorp على هذه العادة.

١٠ ـ ينكر المحمديون حسبان الحسنات لشخص آخر غير الذى قام بها. أما انصار لوثر فيؤكدون أن أحسن أعمالنا هى خطايا.

١١ ـ لقد اعترض محمد على مبدأ حرية الإرادة Franc-Arbitre، وقد فعل انصار لوثر بالمثل.

من المفيد التذكير بهذه المقارنة التى قام بها المستشرقون لبعض المؤلفين المسلمين المعاصرين[١] الذين تصوروا أنهم قاموا باكتشاف كبير لما قاربوا بين الإسلام والديانة البروتستانتية.

(١) مثلاً الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد والشيخ امين الخولى فى محاضرة القيت خلال مؤتمر الديانات الذى انعقد فى مدينة ليدن عام ١٩٣٤.

إن المشـابهة التى اقتـرحـها دوم مـارتينو فـيفـالدو Dom Martini Vivaldo والتى استشهد بها ريلاند صحيحة إلى حد ما، لو أخذنا الإسلام والبروتستانتية ككل، أى دون أن نأخذ فى الاعتبار الآراء الخاصة داخل كل منهما. لكن هذه المشابهة تستدعى بعض الملاحظات:

(أ) على حد معرفتنا لم يسبق لأى مؤرخ لديانة البروتستانت أن قسم الطوائف المنتمية للوثر إلى ٧٠ طائفة. ويمكن لفيفالدو أن يعدّ مايشاء من الطوائف، لكن هذا لن يغير فى الأمر شيء، فالرقم لم يراد منه أبداً على علمى «الإشارة إلى مختلف التشكيلات للكنائس البروتستانتية» فى حين جاء صراحة فى حديث للرسول: سستنقسم أمتى إلى سبعين طائفة وأحياناً ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ مصيرها للنار إلا التى تتبعنى وأصحابى».

(ب) فيما يتعلق بالنقطة (٩) فإننا نعلم أن لوثر يعترف بتعدد الزوجات ويبرره. حيث يظهر موقفه جلياً من خلال قضية كارلشتات Carlstadt 1524 وخاصة فى قضية هانرى السادس Henri VI[1]. ولقد أسس موقفه على أن العهد القديم نص فى مواضع كثيرة على تعدد الزوجات كممارسة مشروعة، وعلى أن العهد الجديد لم يدنها صراحة. وفى المقابل نجد أن كالفن Calvin يدينها ويفسر حالة البطارقة فى العهد القديم على أنها تنازل من الله أمام جشعهم. (انظر تفسيره للتكوين Commentraire sur la Genèse, IV, 19 Corpus, t. XXIII, p 99). أما أفكار بوسر Bucer حول الزواج عموماً فجديرة ببحث دقيق.

(جـ) النقطة الأخيرة المتعلقة بحرية الإرادة Le Libre Arbitre تنطبق على المذهب الأشعرى والسنى وموقفهما من هذه المسألة.

لم يعترض ريلاند على عرض فيفالدى لكنه أضاف إليه تشابهاً آخر بين المحمديين والكاثوليك استخلصها من كلام فيفالدو. إذ أشار هذا الأخير إلى نقاط توافق بين الإسلام والكاثوليكية. حيث يقول كما جاء فى كتاب ريلاند أن «هناك أموراً عديدة يقترب فيها

---

(١) انظر فى هذا الموضوع:

Straph: Martin Luther über Sie Ehe, 1857.

E. Salfeld: Luthers Lehre von der Ehr, Leipzig, 1882.

Cristiani: Luther er le luthérisme, 7ene étude, p 207 - 255.

المحمديون منا نحن المسيحيون الكاثوليك». أولاً، أنهم يعبدون الإله الحق ولا يعبدون الأصنام، وحتى وإن كانوا ينكرون كون المسيح ابن الله إلا أنهم يعتبرونه رسولاً عظيماً وآخر رسول من العبريين. فهم يؤمنون أنه خلق من نفخ إلهى وأنه ولد من عذراء دون تدخل أى رجل. وأنه تلقى من الله قوة معالجة الأمراض وطرد الشياطين وإحياء الأموات وفعل كل ما ذكر عنه فى أناجيلنا. ويعتقدون علاوة على هذا أن المسيح على علم بأسرار القلوب وبكل الكتب السماوية وبحكمة موسى وبكل مايفعله الناس فى بيوتهم وبكل مايكتنزونه فى خزائنهم، إنهم يعتقدون كذلك أن المسيح نبذ كل الثروات، وتخلص من نير الشهوات وصمد أمام كل انواع اللذات المغرية التى تؤدى للخطيئة. وتعلم المحمديون من معلمهم أن الملاك جبرائيل حيا مريم العذراء **﴿إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾**.

ويقولون أيضاً أن الشيطان لم يستثن أحداً من إيذائه إلا يسوع ومريم أمه. إنها لشهادة قيمة ورائعة عن الصورة النقية للطاهرة العذراء. وهم إضافة إلى هذا ينشدون بمزامير داود مثل مانفعل نحن المسيحيين. وعندما يزورون نبيهم لايشعرون بالتطهر التام إلا بعد أن يقوموا بنفس الزيارة للعذراء.

وأخيراً، إذا أراد يهودياً اعتناق ديانتهم فإنهم يجبرونه قبل كل شيء على «الإيمان بيسوع» حيث يسأل: «هل تؤمن أن يسوع المسيح قد ولد من عذراء بنفح من الله وأنه آخر الأنبياء من العبريين؟ وعندما يجيب بالإيجاب يصبح محمدياً». ويعلق ريلاند على هذا التقارب بشكل آخر موجهاً كلامه إلى فيفالدو: «وفقاً لطريقة تحليلكم للموضوع أصبحنا كلنا محمديين!».

فعلاً إن فيفالدو يذهب فى سبيل إقامة هذا التشابه بعيداً فى فهمه للقرآن. لنرى ذلك عن قرب:

(أ) عندما يستخلص من الآية ٤٢ من سورة آل عمران **﴿وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾** أن القرآن يعترف بعقيدة نقاء مريم.

(ب) عندما يدعى أن «المحمديين ينشدون مزامير داود مثلما نفعل نحن المسيحيون» وهذا بطبيعة الحال خطأ، إذ أن المحمديين لاينشدون هذه المزامير ولايعترفون بها بالشكل الذي تنشد به من طرف المسيحيين. فالقرآن لم يذكر سوى اسم «الزبور» الذى من المفروض أنه يدل على الكتاب المقدس المنزل على داود مثلما نزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى.

(جـ) ويقترف فيفالدو كذبة سانجة عندما يدعى أن المحمديين «لايشعرون أنهم تطهروا فعلياً بعد زيارتهم لقبر نبيهم إلا بعد أن يزوروا قبر مريم»، فبداية نقول أن المسلمين لايعرفون مكان قبر مريم بل وأكثر من ذلك فإن هذا القبر غير موجود فى ضواحى المدينة المنورة التى يوجد بها قبر الرسول، فمن أين أتى فيفالدو بهذه المعلومة الخاطئة؟!

(د) مايقوله بشأن السؤال الذى يطرح على اليهودى قبل أن يدخل الإسلام مجرد دلالة أخذها من كون ضرورة إيمان كل مسلم بهذه العقيدة التى نص عليها القرآن. وبالتالى على اليهودى عند اعتناقه الإسلام أن يؤمن بحقيقة ماجاء فى القرآن. لكن بصفة إجمالية وليس بصورة مجزأة.

(هـ) أما باقى ما قاله فيفالدو بشأن عيسى فهى قريبة نوعاً ما من الحقيقة.

من المتوقع بعد هذا التقارب بين الإسلام والكاثوليكية الذى أسهب فيه «دوم مارتينو ألفونسو فيفالدو» أن لايعترض على إطلاع هؤلاء على كتاب أولئك.

لكن فيفالدو يخيب التوقع ويؤكد فى كتابه: Chandelier d'or de la S. Eglise de Dieu, à savoir Jésus - Christ. أن «كتاب محمد لايجب أن يقرأ. بل يجب أن ينتهك ويمقت ويرمى فى اللهب أينما وجد».

ولريلاند رأى معارض - ليس لأنه يحترم القرآن أو الإسلام، فهو ليس أقل قسوة على الإسلام من فيفالدو - إذ يرى أنه يجب قراءة القران للتعمق فى معرفة دين محمد «ولمهاجمته بعد ذلك بنجاح أكبر وتضييق الخناق عليه إن صح التعبير». ويستشهد تدعيماً لطرحه بعبارات مرعشى Marracci مترجم القرآن الشهير والذى أكد فى ديباجة كتابه Prodomus أن الديانة الإسلامية «قد حافظت على كل ماهو معقول ومقنع مما جاء فى

الديانة المسيحية إضافة إلى كل مايبدو لنا متناسقاً مع قانون الطبيعة. ونبذت من حقائقها كل الغاز الإنجيل التى تبدو لنا صعبة التصديق والمنال. كما تخلصت من كل القواعد الأخلاقية العسيرة على الإنسانية التى نجدها فى المسيحية... وبالتالى فإننا نجد أن الكفار اليوم لايجدون صعوبة فى التخلى عن معتقداتهم الوثنية لاعتناق الإسلام على عكس ماهو عليه الحال لو طلب منهم اعتناق المسيحية.

ويضيف مرعشى فى كتابه «دحض القرآن» La Réfutation de l'Alcoran بوضوح: «لقد كنت دائم الاعتقاد فى أنه لو قدم القرآن والإنجيل للكفار، اختاروا الأول بدلاً من الثانى. مما لاشك فيه أن كتاب محمد يقدم للعقل فى الوهلة الأولى أفكاراً عقلانية. خاصة لو كانت هذه العقلانية منحرفة وترفض الألغاز. من هذه الأفكار أن الله واحد وجبار، خالق كل شىء، لايمكن تشبيهه بالمخلوقات، وأنه يجب أن يصلى له باستمرار وبحرارة، وأن الزكاة للفقراء واجبة، وأن الحج واجب، وأنه يجب التغلب على النفس بالصوم، والحفاظ على العدل والاعتدال والطيبة والتقوى وعلى كل الخصال الاجتماعية وعدم التعرض للآخرين بسوء، وتجنب السرقة والقتل والزنا وكل الجرائم، والتعالى على أمر الدنيا الفانية والتمسك بالأعمال الصالحة التى لايفنى جزاءها، وأخيراً أننا سنقدم كلنا كشف حسابنا لله: حيث يكون جزاء الطيبين النعيم الأبدى أما الأشرار فينتظرهم مصير جهنم. يعج القران بمثل هذه الأفكار الأقرب إلى العقل فى ظاهره من بعض الأفكار الإنجيلية. فلو سمع أحد الكفار فى المقابل أحد مبشرينا يقول له إن الله الحق هو واحد فى ثلاثة، وأن الله أخذ صورة رجل، وأنه كان فقيراً وعانى كثيراً ثم صلب ومات ودفن وأنه مجسد فى أسرار الأوكارستية Eucharistie وأن سر التوبة ضرورية وأن الزواج من امرأة واحدة أمر حتمى وأن الرباط المقدس لايفك وأن الحياة صليب مستمر وأن على المرء أن يحسن لأعدائه. حيث تربط الديانة المسيحية النعيم بأمور لم ترها العين ولم تسمعها الأذن ولم يشعر بها قلب إنسان. فأقول إذن لو سمع كافر كل هذه الأشياء ثم قارنها بالمفاهيم القرآنية ماتظنوه سيختار. إنه سيختار حتماً القرآن». ويضيف ريلاند «إن مرعشى يعلنها بوضوح ولايعتقد أن عرض الإنجيل بهذه الصورة يجلب المستمعين فإن هؤلاء سيفضلون محمد وسيعتنقونه بكل جوارحهم».

إن موضوعية كلام مرعشى[1] جديرة بكل الثناء. فعرضه للمعتقدات الإسلامية واضح ودقيق لاتشويه الأحكام المسبقة. من الضرورى التأكيد على موقف مرعشى حيث جرت العادة على تقديمه بصورة مغايرة لما هو عليه فعلاً بسبب عدم الإطلاع مباشرة على عمله والاكتفاء بما تناقله عنه الكُتّاب.

لنعد الآن إلى ريلاند الذى يشرح لماذا يجب الرجوع للمصادر الإسلامية الأصلية من أجل فهم الديانة الإسلامية حتى وإن انتهى الأمر بتفنيدها.

وقد كرس الفصل العاشر من كتابه لتبيان ضرورة معرفة الإسلام من خلال المصادر الإسلامية. لأن الكتب التى ألّفها الأوروبيون عن الإسلام ناقصة ومغلوطة وكاذبة «فهؤلاء الكُتّاب لم يحاربوا الإسلام بقدر ما حاربوا تهويماتهم، وهذا ما سأثبته بحجج بديهية، وسترون أن كل هؤلاء الكُتّاب يتخبطون كثيراً للوصول فى آخر المطاف لنتائج واهية. فأحدهما يكرس كل جهوده الميتافيزيقية ضد المسلمين ليثبت أن الله ليس جسداً وإنما روح. وآخر يثبت أن الشياطين لايمكن أن تكون من أصدقاء الله وإنما هى أعدائه. وآخر بذل مجهوداً مضنياً ليقول إن الوضوء لا علاقة له بنقاء الروح. وبعدما يستفيضون فى كل هذه المسائل نراهم يتصورون أنهم فندوا بقوة ديانة المحمديين.

هذا رغم أن لا محمد ولا أتباعه قد طرحوا هذه الآراء المنسوبة إليهم. وقعوا بالتالى فى السفسطة التى يطلق عليها ignarto elenchi. إن هؤلاء الكُتّاب لايحاربون فى الواقع إلا خيالات ابتدعتها عقولهم. «إن كُتّابنا المعادين لمحمد بالغوا فى ضرب طبولهم ليس ضد أعداء حقيقيين لكن ضد خصوم وهميين بحيث يكون انتصارهم مضموناً، لايحتج عليه أحد».

ويبقى أن الإطلاع على المصادر الإسلامية الأصلية يستدعى إتقان تام للغة العربية بل أكثر من ذلك فمعرفة اللغة العربية ضرورية «لشرح ألفاظ صعبة لم ترد سوى مرة واحدة فى الكتابات مثل ماهو عليه الحال فى سفر أيوب وفى سفر الرسل وغير ذلك».

---

(١) لودفيكو مرعشى (١٦١٢ ـ ١٧٠٠): عالم لاهوتى متعرب اعتمد على المصادر العربية. ويعتبر كتابه Prodomus at Refurationem Al Corani (1661) عملاً قيماً ومرجعاً هاماً. حيث كتبه كمقدمة لترجمته للقرآن وهى بعنوان: Al Corani Textus universus (1699).

ويقصد ريلاند من هذا الكلام أن الكلمات الآرامية التى وردت فى بعض مواضع من الإنجيل يمكن تفسير معناها بالاستعانة بالعربية. وإذا اعترض أحد على هذا الطرح من منطلق أن الكلمة العربية تحمل أحياناً معنى يختلف عنه معناها فى اللغة الآرامية أو العبرية. لكن ريلاند يجيب قائلاً إن كان هذا صحيحاً بصفة عامة يبقى أن نفس الألفاظ بالعبرية وبالسريانية وبالعربية تحمل معانى متقاربة جداً.

وينقسم كتاب ريلاند إلى جزءين:

(أ) الجزء الأول عبارة عن نص عربى عن العقيدة، ترجمه إلى اللاتينية وأرفقه بملاحظات إيضاحية.

(ب) ويحتوى الجزء الثانى على توضيحات عن الديانة المحمدية جاءت فى ٤١ فقرة يناقش فيها الآراء الخاطئة التى نسبت لمحمد.

(أ) العقيــدة:

لايعطى ريلاند أية معلومات عن النص العربى الذى استخدمه فى كتابه. واكتفى بالقول «لقد عثرت على عدة أشكال لعلوم الدين المحمدى كلها ذات قيمة كبيرة وضعها عرب تفوقوا فى العلم والشهرة، ومن بين هذه النصوص عثرت على نص بدا لى أكثرها إيجازاً ومنهجية. ولم أستطع الامتناع عن ترجمته للغة اللاتينية. ويبدأ النص العربى كالآتى:

«الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان، وجعله مهراً لدخول الجنان، وستراً بيننا وبين خلود النيران. والصلاة والسلام على محمد أفضل العباد، الهادى إلى سبيل الرشاد، وعلى آله وأصحابه الأمجاد، صلاة متوالية متنامية إلى أبد الآباد.

أما بعد: فهذا بيان صفة الإيمان ومعناه. اعلم أن الإيمان أول ركن من أركان الإسلام، كما قال النبى (ﷺ) بنى الإسلام على خمسة أركان».

وينتهى النص بالحديث عن الحج «باب الحج: أركان الحج خمسة: الإحرام، وهى النية: نويت أن أحج، وأحرمت لله تعالى. والوقوف بعرفة. والحلق أو التقصير بمنى. والطواف بالكعبة. والسعى بين الصفا والمروة. تم الكتاب».

إن هذا النص - يواصل ريلاند - قصير للغاية يتكون من ٣٠٥ سطراً وحوالى ٦ كلمات فى السطر. ونجده مقسماً إلى عدة فصول منها:

١ - باب الطهارة. ٢ - باب الصلاة. ٣ - باب الزكاة. ٤ - باب الصيام. ٥ - باب الحج.

أما فى المقدمة النظرية فإن هذا النص يتعرض لمسائل الإيمان حيث يمكن أن نطلق عليه باب الإيمان وتقسيمه إلى: ١ - فى الإيمان عامة. ٢ - الإيمان بالله. ٣ - الإيمان بالملائكة. ٤ - الإيمان بالكتب. ٥ - الإيمان بالرسل. ٦ - الإيمان باليوم الآخر. ٧ - الإيمان بالقدر.

ولقد أرفق ريلاند النص العربى وترجمته إلى اللاتينية بملاحظات مستفيضة تنم عن معرفة جيدة لبعض المصادر العربية والفارسية، وهى فى أغلبها غير معروفة فى عصره. وقد أعطى قائمة بهذه المصادر والكتب فى آخر كتابه. حيث نجد أن أربعة وعشرون منها كان بحوزته فى مكتبته الخاصة وأنه عثر على اثنين منها فى مكتبة امستردام كما استعان بأربعة منها كانت توجد فى مكتبة سيكا Sike أستاذ العبرية فى كامبريدج.

(ب) التوضيحات:

وهو عنوان الجزء الثانى من كتاب ريلاند. ويكتسب هذا الجزء أهمية كبيرة ولازال صالحاً إلى يومنا هذا. قسمه ريلاند إلى «٤٠ سؤالاً أو توضيحاً حول ديانة محمد فى مواجهة الآراء التى تنسب إليه. وسوف أبدأ هنا بعرض الرأى ثم أقدم استشهاداتى، وبعد ذلك أكشف عن الغلط والخطأ ويكون ذلك غالباً باكتشاف مصدرها، ثم أفندها بحجج قوية.

وعلينا أن نأمل فى أن يتحلى المسيحيون مستقبلاً بالعدل فيما بينهم وتجاه أعدائهم وأن يكونوا أكثر تحفظاً تجاه مايقدم لهم من أوهام على أنها آراء محمد».

وهذه هى التوضيحات الأربعين التى يعرضها ريلاند:

١ - هل صحيح أن المحمديين يعملون بالحكمة القائلة أن كل امرىء سينجو فى ديانته إذا اتبع طريقاً سوياً؟

٢ ـ هل صحيح أن المحمديين يعتقدون فى إله مجسد؟

٣ ـ هل الله عند المحمديين هو مرتكب الخطيئة؟

٤ ـ هل يعبد المحمديون كوكب الزهرة؟

٥ ـ هل كان المحمديون يعبدون كل المخلوقات؟

٦ ـ هل ينكر المحمديون العناية الإلهية؟

٧ ـ هل يؤمنون بأن الله بنفسه يصلى لمحمد؟

٨ ـ هل ينكر المحمديون جهنم؟

٩ ـ إلى أى جهة يولى المحمديون وجوههم فى صلواتهم؟

١٠ ـ هل يعتقد المحمديون أن أوساخ الروح يغسلها وضوء الجسد؟

١١ ـ هل يوجد فى مبادىء المحمديين مايقول أن الشياطين أصدقاء الله؟

١٢ ـ هل يقول المحمديون بوجود ملائكة إناث؟

١٣ ـ هل قال محمد أن الملائكة الطيبة يمكن أن تقع فى الخطيئة؟

١٤ ـ هل يقول محمد أن الشياطين ضعفاء؟

١٥ ـ هل المحمديون أتباع أوريجين Origénistes(*)؟

١٦ ـ حول جنة محمد والنعيم الأعلى عند المحمديين.

١٧ ـ هل هناك خلاص للنساء عند محمد؟

١٨ ـ هل يذهب المحمديون لمكة لزيارة قبر محمد؟

(*) Origéne عالم لاهوت مسيحى ولد فى الإسكندرية (١٨٤/١٨٦ ـ ٢٥٢/٢٥٤)، لقد كان لأعماله أثر كبير على الفكر المسيحى لكنها أثارت جدلاً كبيراً لما تبناه يثار بعد ذلك بقرون اسمه Origenisme. وانتهى الأمر بإدانة أفكاره.

١٩ ـ هل جاء فى القرآن أن العذراء هى الأخت الشقيقة لموسى؟

٢٠ ـ هل قال محمد أن هامان وهو معاصر لمردوش Mardochée قد عاش فى عصر فرعون وموسى؟

٢١ ـ هل أنكر محمد أن يسوع المسيح قد مات؟

٢٢ ـ هل حملت مريم العذراء بعدما أكلت تمراً كما جاء على لسان المحمديين؟

٢٣ ـ هل الكلب حيوان طاهر عند المحمديين؟

٢٤ ـ هل يعتقد المحمديون استناداً على مبدأ من مبادىء عقيدتهم أن يجوز خرق اتفاقاتهم مع من يطلقون عليهم الكفار؟

٢٥ ـ هل تناقض واضع القرآن بشأن القرآن نفسه؟

٢٦ ـ هل خلط محمد بين الفرعون الذى رفع موسى وبين الفرعون الذى طغى على آخر شعوب الله والذى مات غرقاً فى البحر الأحمر؟

٢٧ ـ هل كان محمداً جغرافياً سيئاً لكونه وضع الكعبة فى وطن العمونيين؟

٢٨ ـ هل تعارض محمد مع نفسه فى القرآن بقوله تارة أنه لايعرف القراءة وتارة أخرى أنه يعرف القراءة؟

٢٩ ـ هل تعارض محمد مع نفسه مرة أخرى عندما قال أنه يقود رجاله على درب الخلاص مرة ثم عاد وقال أنه لايعرف إن كان هو ورجاله على هذا الدرب؟

٣٠ ـ هل لم يذكر القرآن قط الله الخالق والخالد؟

٣١ ـ هل يجوز للمحمديين الزواج طبقاً لما تقرره عقيدتهم بأى عدد من النساء طالما هم قادرين على الإنفاق عليهن؟

٣٢ ـ هل لم يأخذ المحمديين حذرهم فى غسل وجوههم؟

٣٣ ـ هل يعتبر موسى فى عداد المرفوضين من طرف المحمديين؟

٣٤ ـ هل لايعترف المحمديون إلا بثلاث أنبياء: موسى، يسوع المسيح، ومحمد؟

٣٥ ـ هل خلق الإنسان من علقة كما يقول محمد؟

٣٦ ـ هل أنكر محمد خلود الروح؟

٣٧ ـ هل قال محمد أن الذى قتل عدو أو قتل على يديه عرف الخلاص؟

٣٨ ـ هل صحيح مايقال عن محمد أنه ربى حمامة كانت تهمس فى أذنه كلما انتابه الصرع؟

٣٩ ـ هل يؤمن المحمديون بتعدد العوالم؟

٤٠ ـ هل استعار محمد مسألة الطهارة من اليهود الذين عاصروه؟

(ب) ياكوب ايرهارت Jacob Ehrharth وتوضيحاته

إن قائمة العناوين السابقة الذكر تعبر عن مجمل المغالطات التى تداولها علماء اللاهوت المسيحيين الذين كتبوا عن الإسلام حتى القرن السابع عشر.

ولو قارناها بالقائمة التى وضعها ياكوب ايرهارت أربعة عشر سنة[1] بعد ذلك (فى عام ١٧٣١) لوجدناها اكثر عمقاً وأكثر علماً وغنى من هذه الأخيرة.

إذ يحتوى كتاب ايرهارت على اثنى عشر فصلاً هى:

١ ـ الأفراد المختلفين وطرق التفكير فى الحياة، انبثاق ينبوع الحياة الطيبة عن طريق النبى محمد.

٢ ـ الجهل بمحمد وببعض الشهود والقضايا.

---

(1) De illustrium ac obscurorum Erroribus praecipiuis in historia Mahometi eorumque causis dissertatio, autore Jacob Ehrharth. Apud Joh. Paul. Rothium Bibloth. Ulm. MDCCXXI.

٣ ـ الجهل باللغة العربية هو سبب الخطأ في معرفة مايتعلق بالنبى محمد.

٤ ـ الأخطاء التاريخية والجغرافية والاختلاف حول بيئته ووطنه.

٥ ـ أخطاء عن تواريخ القرآن.

٦ ـ الأخطاء والخرافات حول معلمى محمد خاصة «سرجيوس».

٧ ـ الأخطاء عن خداعه وسرقاته.

٨ ـ عن خداعه خاصة معجزة الحمام.

٩ ـ عن الأخطاء التى تدور حول قبر النبى محمد.

١٠ ـ عن المحدثين المحمديين.

١١ ـ عن أيقونة محمد وحالته كمثال.

١٢ ـ De ejus Epilespria.

إن هذا الكتاب لايتطرق إذن إلا إلى جزء صغير مما تعرض له ريلاند. ونجده فى المقابل يستفيض فى مسائل تطرق لها ريلاند مثل الادعاء بأن محمد كان يعانى من الصرع. كما يستشهد كثيراً[١] بريلاند واصفاً إياه بـ "doctissimus Relndus". ونجده يتفق معه مؤكداً أن «عدم الإلمام باللغة العربية هو سبب جهل الأمور المتصلة بمحمد» ثم يكشف عن كم الأخطاء التى اقترفت بسبب جهل اللغة العربية خاصة فيما يتعلق بألفاظ الإسلام، مسلم، والقرآن. فكلمة مسلمان (وهى جمع مسلم بالفارسية والتركية) فسرت كالآتى: المسلم هو من سلم ونجا من الحرب وعاد منها، لأن الجميع الذين اعتنقوا المحمدية حماهم وحفظهم من حيث الجسد والحياة والممتلكات. (Sal. Schiv weigerus, in: Descript Itin. Constant. et Hierosal, liber II, p. 92).

أما كلمة القرآن فيفسرها شوستروس Schusterus (P. 11. p 41) تفسيراً غريباً:

---

(١) انظر صفحات ٢١، ٢٢، ٥٩، ٦٠، ١٧٢، ١٧٣.

«القرآن خليط عشوائى، غير منظم لأن القرآن مضطرب والتعامل معه تعامل مع عمل يتسم بالفوضى مثل من يقوم بإصلاح الأحذية القديمة غير مسموح أن يقوم بعمل جديد صحيح، ولا يستطيع. ولذلك يقوم بترقيع الأحذية القديمة، مرة بنعل قديم وأخرى بنعل جديد، مرة يرقعها من أعلى ومرة من أسفل وأخرى فى المنتصف كما يتعامل مع شخص معتوه».

ولهذا يتفق الكاتبان ريلاند وايرهارت على أن لبعض «الإغريق» تأثير سلبى على فهم الإسلام وأنهم ابتدعوا مغالطات وقع فيها من تبعهم. هؤلاء الإغريق هم البيزنطيون الذين طردوا من الإمبراطورية البيزنطية بعد سقوط القسطنطنية عام ١٤٥٣م. حيث نشر هؤلاء بدافع الحقد والضغينة والتأثر مختلف الأكاذيب عن الإسلام، ديانة الأتراك الذين طردوهم. ويستشهد ياكوب ايرهارت بهذا الخصوص جملة كتبها كروزيو Crosio فى كتابه des dissertations historiques sur sivers sujeto p.21. يقول فيها «لقد أصبحنا اليوم أكثر إلماماً من أى وقت مضى خلال القرون الماضية، بعقائد وبسير حياة النبى محمد. إن الخرافات التى نسجها الإغريق حول أصل الديانة الإسلامية لم تعد تصمد أمام شهادات عتيقة». ويذكر من بين هؤلاء الإغريق ثيوفون Theophone.

وبعد أن بيّن ريلاند أن أهم أسباب الأخطاء بشأن فهم الإسلام ترجع إلى جهل المستشرقين الغربيين اللغة العربية، يقول: «وقد صاحب جهل كتابنا الغربيين حماس كاذب لبعض الإغريق الذين يعيشون وسط المحمديين. وقد كان أحرى بهؤلاء المتحمسين البحث عن معرفة المحمديين ودراسة لغتهم المقدسة بدلاً من تشويه صورتهم عن سوء نية مبيتة ضد خصوم منتصرين. وهذا مادفعنى لإعطاء صورة حقيقية عن هذه الديانة ولتصحيح ماينسب إليها من مهاترات».

(ج) مريم يا أخت هارون!

من بين الأربعين سؤالاً الذين أثارهم ريلاند فى كتابه هناك السؤال ١٩: هل صحيح ماجاء فى القرآن من أن العذراء أخت هارون؟ وهو السؤال الذى سنوضحه فيما يلى نظراً لأنه مثار إلى يومنا هذا.

وقد جاء في نص ريلاند اللاتيني مايمكن تلخيصه كالآتي:

(أ) جرى الادعاء بأن محمد أكد في القرآن على أن مريم أم يسوع المسيح هي أخت هارون وموسى.

(ب) من بين الذين يدعون هذا هناك يوحنا الدمشقي Jean Damascene في كتابه «الطوائف» De Haeresibus. ثم ردد نفس الادعاء المستشرق نيكولا دو كوز Nicholas de Cuse في كتابه «نقد القرآن» (الكتاب الأول، الفصل الرابع) Cribratio Alcorani, lib. 1, cap. 4, p. 44. ثم نقل جان اندروس Joh. Andreas نفس الفكرة في كتابه «فوضى طائفة محمد» De confusione secrate Mohometanae. p. 51. وهورنبك Hornbek في كتابه Summa Coutrov., P. 128. وكذلك اثيمويس زيجابينوس Euthymuis Zigabenus in Panople. Dogmat. وتبعهم بعد ذلك كثيرون. كل هؤلاء تذرعوا بالفرق الزمني بين هارون ومريم ورفعوا راية الهجوم على القرآن ناكرين صفقته الإلهية.

(جـ) ويدعي ريلاند أنه من الجائز أن نفترض أن محمداً كان بدرجة من الجهل بالتاريخ جعلته يخلط بين زمن موسى وزمن يسوع. وأنه لم يحفظ جيداً بعض الأساطير المنتمية لفترات تاريخية مختلفة. وخاصة أنه يصف نفسه بالنبي الأميّ.

(د) لكن القول بأن القرآن ينادي مريم بأخت موسى مسألة أخرى. لأن القرآن - يضيف ريلاند - يقول في سورة مريم، الآية ٢٩: ﴿**يا أخت هارون**﴾.

(هـ) وإذا قلتم لي - ريلاند هو المتحدث - من يكون هارون هذا إن لم يكن شقيق موسى؟ فأجيبكم: إن هذا مجرد تأويل قام به المسيحيون. فهو ليس تأويل محمد ولا تأويلي أنا. إذ من المحتمل أن يكون لمريم أخ اسمه هارون لم يدون اسمه أي كاتب ولم يذكره سوى القرآن!

(و) الاحتمال الآخر هو أن هناك من يعتقد من المسلمين بأن مريم أخت موسى قد حفظت بمعجزة منذ عهد موسى إلى غاية عهد يسوع المسيح لتصبح أمه.

(ز) الاحتمال الثالث نجده لدى هربلوت .D. Herbelot, Bibliothèque Orientale

p. 583. الذى يقول أن مريم تنتمى إلى عائلة عمران أبو موسى وهارون لأنها تنحدر من فرع هارون الذى تنتمى إليه أمها، أى من العائلة الكهنوتية، إذ جاء فى الإنجيل (انظر لوقا ١: ٣٦) أن إليصابات هى نسيبة مريم وأنها تنحدر من هارون (انظر لوقا ١: ٥). ويتبنى بعض المفسرين المسلمين هذا الرأى.

(ح) ويضيف هؤلاء المفسرين أن عمران أب مريم هو ابن ماثان، وبالتالى فهو ليس ذلك العمران والد مريم أخت موسى. ويعتقدون أن هذا الأخير هو ذلك الذى يطلق عليه المسيحيون اسم يوهاكيم Joachim زوج القديسة آنا Anne ووالد مريم أم يسوع. فهناك إذن عمران والد مريم أخت موسى وهارون، وعمران والد أم يسوع.

(ط) لم يتبن ريلاند أياً من هذه الاحتمالات على أساس أنها تحتمل الخطأ وتحتمل الصواب. لكنه متأكد فى المقابل من أنه لايمكن لأحد أن يثبت بأن القرآن يجعل من مريم والدة يسوع أختاً لموسى. وبالتالى لايستطيع خصوم القرآن والإسلام الاعتماد على العبارة القرآنية: ﴿يا أخت هارون﴾، فكل الاتهامات الموجهة للقرآن اعتماداً على هذه العبارة لا أساس لها من الصحة.

(د) بحث هذه الاحتمالات الأربعة:

لو دققنا فى هذه الاحتمالات الأربعة فإننا نكتشف الآتى:

١ ـ الاحتمال الأول الذى يفترض أنه كان لمريم والدة عيسى أخاً اسمه هارون لم تذكره الوثائق المسيحية (أو اليهودية) بينما جاء ذكره فى القرآن فقط. أقول أن هذا الاحتمال ليس مستحيلاً لكنه لم يرد فى أى وثيقة أخرى.

٢ ـ أما الاحتمال الثانى القائل بأن مريم أخت موسى وهارون قد حفظت بمعجزة لمدة ١٥ قرناً لتصبح بعد ذلك والدة عيسى فهو مجرد مهاترة لم أعثر لها على أثر فى كتابات مفسرى القرآن. ولنا أن نتساءل أيضاً حول الحكمة من مثل هذه المعجزة؟ ثم إن القرآن لم يذكر اسم مريم أخت موسى ولم يعرها أى اهتمام. فلماذا إذن ينسب لها معجزة ما ويرفعها لمرتبة مريم أم عيسى؟ إن هذا الاحتمال إذن مجرد فرضية بلهاء.

٣ - الاحتمال الثالث الذى يفترض أن مريم أم عيسى تنتمى إلى عائلة عمران والد موسى وهارون يبدو أكثر الاحتمالات صواباً. فهو يستدعى تحليلاً أعمق سنتعرض له بعد أن نفرغ من الاحتمال الرابع.

٤ - إن الاحتمال الرابع يشبه كثيراً الاحتمال الأول. إذ هو يفترض أن هناك عمرانان. الأول هو والد موسى والثانى والد مريم أم عيسى. هذا الافتراض لم تثبته أى كتابة إنجيلية. ولهذا نقول أن الاحتمالين الأول والثانى مجرد فرضيات واهية ابتكرت لخدمة قضية المستشرقين.

ونعود إلى الاحتمال الثالث لنلقى عليه نظرة أكثر عمقاً..

(أ) مريم تنحدر من هارون:

نبدأ بمشكلة علاقة النسب بين مريم أم عيسى وهارون ابن عمران وأخ موسى. حلقة الوصل بينهما هى اليصابات Elissabeth زوجة زكريا ووالدة يحيى Jeau-Baptisre والتى كانت تنتسب للعائلة الكهنوتية Sacerbotale وتنحدر من هارون كما جاء فى كتاب لوقا (٥:١): «كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات»، ويؤكد الإنجيل كذلك على أن إليصابات كانت قريبة مريم بقوله: «وهو ذا إليصابات نسيبتك...» (لوقا ١:٣٦).

كما يؤكد هيبوليت St. Hippolyte (آخر القرن الثانى - بداية القرن الثالث) نقلاً عن Nicephore Calliare فى (Hist. Ecclesiastique - 11,3,t. CXLV de la PG, Col. 760). أن والدتا مريم واليصابات كانتا أختان، وأطلقوا على الأولى: Anne وعلى الثانية Sobé.

وفقاً لما جاء أعلاه فإن مريم هى قريبة إليصابات بل نجد أن هيبوليت Hippolyte يذهب إلى أن مريم واليصابات بنات خالات. وبما أن كتاب لوقا يؤكد على أن مريم تنحدر من هارون - ولا يناقضه فى هذا أى مصدر آخر - فإنه يجوز لنا أن نستنتج لانحدار مريم من سلالة هارون سواء من جهة الأم أو الأب.

(ب) عائلة عمران:

إن كانت كل من إليصابات ومريم تتحدران من هارون وإن كان هارون ابن عمران فإنه يحق أن نعتقد بأن هؤلاء الثلاثة ينتمون إلى آل عمران. وكذلك أبنائهم يحيى وعيسى. وهذا يفسر لنا ماجاء في سورة آل عمران التي تقول أن يحيى ووالدته ومريم وعيسى ينتمون لعائلة واحدة وهي عائلة عمران لأنهم ينحدرون كلهم من هارون.

لنطبق هذا التأويل على المواضع التي جاء فيها ذكر اسم عمران في القرآن:

١ - سورة آل عمران، الآية ٣٣/٣٤: **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم﴾.**

٢ - سورة آل عمران، الآية ٣٥: **﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني..﴾.**

٣ - سورة التحريم، الآية ١٢: **﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾.**

وتنطبق الآية ٣٣ تماماً على تفسيرنا، وهو أن آل عمران ينحدر منها إليصابات زوجة يحيى ومريم وابنها عيسى، إضافة إلى موسى وهارون. فعائلة عمران كيان واحد يقابله كيان عائلة إبراهيم المكونة من ولديه: إسماعيل وإسحاق والمنحدرين مباشرة منهم (لاسيما يعقوب وولده يوسف).

ويمكن تفسير الآية ٣٥ بالاعتماد على أن عبارة «امرأة عمران» بمعناها غير المحدد أي بمعنى امرأة من آل عمران. حيث إن اسم عمران هو لقب العائلة ولا يقصد به اسم الزوج فقط.

أما الآية ١٢ من سورة التحريم فيمكن فهمها بنفس الطريقة. بالتالي يكون المقصود من عبارة «مريم ابنة عمران» مريم بنت آل عمران. وإذا تساءل أحد لماذا لم يذكر لقب مريم صراحة؟ ويمكن أن نجيب قائلين أن اسم والد مريم لم يذكر أيضاً في العهد الجديد. ويظل أهل مريم مجهولين لدى الكل. فأقدم الكتابات عنهم تعود إلى الأناجيل المكتوبة وإنجيل

مولد مريم. والبروتو - انجيل سان جاك (v. Fabricius: Code & Apocyphus Novi Jestamenti, t.1. p. 13-67). ويحكي في هذه الكتابات أن والد آن Anne والدة مريم كان كاهناً وكان يقطن بيت لحم. وأن والدة مريم تزوجت رجلاً اسمه يواكيم Joachim وكان أصله من الجليل. لايوجد أية معلومات عن هذا الأخير.

وإن كان العهد القديم لم يتطرق لاسم والد مريم ليس مطلوباً من القرآن أن يفعل ذلك. ولذا يظل اسمه مجهولاً للجميع حيث لانعرف عنه سوى أنه كان من آل عمران.

(جـ) كيف نفسر عبارة «يا أخت هارون»؟

إن هذا الأمر سهل - فى رأينا - لقد استشهد ريلاند Reland كما جاء فى كتاب هيربلوت D. Hebelot. la Bibliothéque Orientale. ببعض تفسيرات قام بها الفقهاء المسلمون مفادها أن العبارة معناها: يامريم المنحدرة من عائلة هارون.

لكن، ورغم صحة هذا التفسير، صمم بعض المستشرقون على تكرار نفس الاتهام العقيم الذى ردده قبلهم يوحنا الدمشقى (حوالى ٦٧٥ - ٧٤٩).

ولتكتمل لنا الصورة نستعرض بعض آراء هؤلاء المستشرقين:

١ - هربرت جريم: «محمد» الجزء الثانى، ص ٩٢ - ٩٣ منستير ١٨٩٥: «وبمتابعة مسيرة تلك الفترة أتم محمد - صلى الله عليه وسلم - استعارته من التعاليم المسيحية بأخذه لبعض الوثائق الحديثة كجعل عيسى ومريم ويحيى وزكريا فى سلسلة الأنبياء والقديسين.

وفى الفترة المدنية ضمت هذه المجموعة إلى العائلة المباركة والتى أطلق عليها بنى عمران، ولقد استقر على هذا الاسم نتيجة لـ .... التاسية التى فيها ذكرت مريم أم عيسى وأنها هى نفسها مريم أخت موسى وهارون ومن ثم رفع الثلاثة المذكورين من قبل إلى عمرام الإنجيلى وأنه هو الأب الأول لأسرة الأنبياء المسيحيين».

٢ - يوسف هوروفيتس: «البحوث القرآنية» - (برلين وليسنيج ١٩٢٦):

(أ) (ص ١٢٨) «ذكر عمران أن والد مريم (ماريا) أولاً فى الفترة المدنية سورة

التحريم ١٢ آية ٣: ٣٠، وقد ذكر فيما بعد بالتبادل مع والد أخت موسى (مريم) سورة مريم، الآيات ٦، ٣٥، ٢٣، ٥٢، ٤٣، ٥٧.

(ب) (ص ١٣٨ - ١٣٩): كما أشير إلى أن مريم أخت لعمران في «آل عمران» آية ٣١، ٦٦، ١٢، في كلاً من الفترتين المدنية والمكية. وبدت أيضاً أنها أخت هارون في سورة مريم آية ٢٩ وكذلك ذلك بتبادل على أنها مريم أخت موسى وهارون في الوقت الأخير. كما أخذ محمد (ﷺ) الاسم المستخدم في النصوص الإنجيلية وعند الإغريق، وهو مريم ، وتعرف عليها عن طريق الوسائل السريانية (مريم الأثيوبية وماريا) أخت موسى وهارون، وأن الاسمين يعودان على نفس الشخص».

٣ - ويأخذ فنسنك A.J. Wensink في مقاله: «مريم» في موسوعة الإسلام (Maryam de l'Encyclopédie de l'Islam. t.3, p. 359. de la première édition). موقفاً أكثر تحفظاً كاتباً:

(أ) لقد افترض أن اسم عمران الذي يقابله دون شك في الإنجيل اسم عمرام Amram والد موسى وأن ذكر مريم أختاً لهارون (السورة ١٩ الآية ٢٩) مرده إلى خلط بين الشخصيتان اللتان تحملان اسم مريم في الإنجيل. فيما يعتقد سال Sale وجيروك Gerock وغيرهم أن مثل هذا الخلط مستحيل. إن الكتابات الإسلامية تؤكد لنا، على أية حال، أن هناك ١٨٠٠ سنة تفصل بين كل من عمرام الذي ذكر في الإنجيل وبين والد مريم. ولم يذكر القرآن اسم زوجة عمران جدة عيسى. بينما أطلقت عليها الكتابات المسيحية والإسلامية اسم حنا Hanna. لكن الكتابات الإسلامية ذهبت أبعد من ذلك وتطرقت تفصيلاً لأصولها. فهي ابنة فاقوذ وأخت إشباع (أو إليصابات كما جاء في الإنجيل).

(ب) ويمكن أن نضيف بأن عبارة «يا أخت هارون» أن هارون لم يكن أخ موسى وإنما رجلاً عاصر مريم واشتهر بنفسه لدرجة أنها قورنت بها. أو ربما كان لخاها فعلاً، وعرف بين الناس بصلاحه وتقواه.

٤ - ويقول ريجيس بلاشير Régis Blachère في ترجمته للقرآن (Le Coran traduction selon un essi de reclassement des sourates, t, 11. Paris 1949) منطلقاً على

الآية ٢٩ من السورة ١٩ ففي السورة الثالثة الآية ٣١ ذكرت والدة مريم على أنها امرأة عمران، وجاء في السورة ٦٦ الآية ١٢، مريم ابنة عمران. وهذا مايتعارض مع الكتابات المسيحية كما جاءت في الأناجيل، حيث سمى والد مريم «يواكيم» Joachim. هذا التعارض أزكى الجدل المسيحي ضد الإسلام الذى يبدو أن اشتعل في عهد محمد. (أنظر الطبرى ٥٩). إذ اعترض مسيحيو نجران على الخلط بين مريم أم عيسى وبين مريم النبيّة أخت هارون التى يتحدث عنها سفر الخروج، ١٥، ٢٠ وسفر العدد ١٢، ١. ولتفادى هذا الهجوم اقترح الفقه الإسلامى أن هارون الذى ذكر فى عبارة «يا أخت هارون» مختلف عن هارون أخ موسى، كما اقترح كذلك أن عبارة «يا أخت هارون» تحمل معنى المنحدرة من سلالة هارون. انظر فى هذه المسألة: Excursus: Marye (T.11, p. 229 -230n).

٥ - رودى باريت Rudi Paret «القرآن: تعليقات ومناقشات» شتوتجر ١٩٧١:

ولا ينبغى أبداً تجاهل الخروج من هذا التكدس النسبى من الوثائق الحديثة التى تطلق مريم والوثائق القديمة التى تطلق اسم (مريم) وهذا يقتصر حقيقة على أصل الاسم وباستطاعة المرء أن يتحدث من خلال تبادل الاسم من ماريا ومريم.

والحقيقة الأخيرة هى أن محمد - صلى الله عليه وسلم - كان يرى دائماً أن عيسى ابن مريم - ماريا - كان ابن أخت موسى بمعنى الكلمة وأنه من سلسلة الجيل مباشرة دون وساطة، ولكنه يعود بعد هذا التأكيد القاطع إلى اتهام القرآن بالخلط حيث يقول: «إنه لمن العجيب أنه فى نفس النص سورة مريم الآية ٢ والتي ذكرت فيها مريم أم عيسى كأخت لهارون قيل أن الله رحمة بموسى وهب له أخاه هارون نبياً، فهارون هنا يعد أيضاً أخو مريم كما هو أخو موسى».

هذا الاستنتاج خاطىء طبعاً، إذ لاتوجد صلة مباشرة بين الآية ٢٨ ﴿يا أخت هارون﴾ والآية ٥٠ التى تتحدث عن حقبة تاريخية أخرى متعلقة بموسى والتى تبدأ بجملة فاصلة هى: ﴿واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيًا﴾. كل مايمكن قوله هو أن آراء باريت غامضة ومتناقضة.

الحلول الخمسة التى اقترحها المفسرون:

لو استعرضنا آراء العلماء الخمس التالية نكتشف أن:

(أ) المستشرقان جريم Grimme وهوروفيتز Horovitz يكرران الاتهام القديم. أى أن هناك خلط فى القرآن بين مريم والدة عيسى ومريم أخت موسى وهارون دون أن يقدمان براهين إضافية أو مناقشة أخرى غير التى عرضها ريلاند منذ عام ١٧٠٥. وهذا الأمر يبدو غريباً نوعاً ما.

(ب) ويكتفى فنسنك Wensinck باستعراض آراء الآخرين: الذين يتبنون الاتهام والذين لايأخذون به. ويستشهد فى نفس الوقت بآراء بعض المفسرين المسلمين.

(جـ) والجديد لدى بلاشير Blachère هو افتراضه القائل أن هذا الاتهام يعود إلى عهد محمد ويرجعنا إلى الطبرى ٥٩. ولم أستطع أن أحدد هذا المرجع. فهو يقصد بالطبرى (انظر شرح رموز المؤلفين فى مقدمة الجزء الأول من تفسيره للقرآن). قلت إذن أن يقصد تفسير الطبرى وبالتالى فإن الرقم ٥٩ لايدل على شىء. إن بلاشير يريد فى الواقع الإشارة إلى مايقوله الطبرى فى تفسيره للآية ٢٩ من سورة مريم (الجزء ١٦. ص ٥١ - ٥٢. مطبعة الميمنية - القاهرة).

يقول الطبرى إذن أن لأهل التفسير آراء كثيرة ومختلفة حول سبب تسمية مريم بأخت هارون وحول من يكون هارون هذا الذى ذكره الله. فالبعض قال أنها سميت بأخت هارون لتمنح صفة الصلاح. إذ كان يطلق على الصالحين من القوم اسم «هارون». فالمقصود بهارون لدى أصحاب هذا الرأى ليس أخ موسى. ونقل هذا الرأى الحسن عن عبدالرزاق عن معمر عن قتادة؛ الذى يؤكد بشأن عبارة «يا أخت هارون» أن هذا الأخير كان من أتقياء قوم إسرائيل وأن اسمه كان «هارون». وقد شبهوا مريم به فى تقواه. ويحكى بشر عن يزيد عن سعيد أن قتادة قال بشأن السورة: ﴿**يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً...**﴾ (... تفسير الطبرى ص ٥٢ - ٥٤).

ويمكننا وفقاً لنص الطبرى تقسيم الآراء المتعلقة بعبارة «يا أخت هارون» إلى نوعين:

(أ) رأى يؤكد أن «هارون» المعنى هنا ليس أخ موسى.

(ب) ورأى يؤكد على النقيض أن هارون هو الأخ الشقيق لموسى.

نستطيع أن نميز فى الرأى الأول بين ثلاثة اتجاهات:

١ ـ اتجاه من يقولون أن هارون كان رجلاً صالحاً تقياً من رجال إسرائيل. وننعت بهذا الاسم كل رجل عرف بصلاحه.

٢ ـ اتجاه يؤكد أن «هارون» هذا كان رجلاً فاسقاً فورنت مريم به بسبب شكوك قومها فى عفتها.

٣ ـ اتجاه يذهب إلى أن مريم كان لها أخ اسمه هارون وكان رجلاً تقياً من رجال إسرائيل. ويتبنى هذا الرأى الفخر الرازى (التفسير ١١، ص ٣٧١).

أما الرأى الثانى الذى يؤكد أن هارون هو أخ موسى فيستند على أن عبارة «يا أخت هارون» مجرد عبارة مجازية المقصود منها: «المنحدرة من هارون»، مثلما يقال لرجل من قبيلة تميم: يا أخ تميم، أو لرجل من مضر: يا أخ مضر.

أما الطبرى الذى يستعرض كل هذه الآراء فإنه يتبنى فى الأخير الرأى الذى نقل عن الرسول والذى مفاده أن المعنىّ بهارون ليس أخ موسى وإنما رجل صالح من قوم مريم.

لكننا نجد أن فخر الدين الرازى[1] يتبنى رأياً مختلفاً تماماً إذ يؤكد أن الرسول قال أن هارون المشار إليه فى الآية هو هارون النبى وأن مريم من سلالته. فالعبارة «يا أخت هارون» هى مثل عبارة يا أخ همدان أى «يا أحد أفراد القبيلة».

وذكرت الرواية التى جاءت فى تفسير الطبرى، والتى تروى ماحدث للمغيرة بن شعبة لما بعث إلى أهل نجران، فى صحيح مسلم والترمذى والنسائى (انظر تفسير ابن كثير. الجزء ٣، القاهرة ١٩٥٤). وتعتمد هذه الراوية على مانقله عبدالله بن إدريس عن والده عن سيماك. ويلاحظ الترمذى أنه حديث حسن، صحيح، غريب.

---

(١) فخر الدين الرزاى: التفسير الكبير، الجزء الرابع، ص ٣٧١، مطبعة بولاق. القاهرة ١٨٦٢.

ولو كان هذا الحديث المنسوب إلى المغيرة بن شعبة صحيحاً لقلب لنا كل معطيات المشكلة:

(أ) لأن هذا يعنى أن اتهام القرآن بالخلط يعود إلى عهد النبى.

(ب) وأن يوحنا الدمشقى لم يقم سوى بترديد اتهام قديم يرجع إلى مائة سنة خلت (ولد يوحنا الدمشقى حوالى ٦٥٩ وتوفى حوالى ٧٥٠ ميلادية).

وفى هذه الحالة لنا أن نتساءل حول اختلاف وتعدد آراء المفسرين المسلمين حول هذا الاتهام طالما أنه وجه لمحمد فى حياته وأنه هذا الأخير قد رد الرد الصحيح. لماذا لم يكتف هؤلاء المفسرون بنقل ما جاء على لسان الرسول وإفحام كل من يجرؤ على إثارة الاتهام.

من الطبيعى جداً أن يكون المسيحيون فى المدينة، واليهود كذلك، قد اعترضوا على الآية ٢٩ من سورة مريم فور سماعهم لها لما نزلت فى المدينة. لكن لاتوجد أية مراجع تتحدث عن هذا. فلماذا إذن يكون مسيحيو نجران هم وحدهم الذين اعترضوا؟ ولماذا لم يذكر القرآن الحادثة وهو الذى كان يسجل كل مجادلات الرسول مع اليهود والنصارى؟

كل هذه المسائل تثبت - فى اعتقادنا - أن الرواية والحديث المرتبط بها - المنسوب إلى المغيرة بن شعبة - غير صحيحان. والأرجح أن هذا الحديث قد اختلق للتصدى لاتهامات المسيحيين خلال القرن الثانى أو الثالث الهجرى.

حلنا للمشكلة:

نحن نقول أن المشكلة لم تطرح فى عهد محمد لسبب بسيط وهو أن المسيحيين واليهود لم يروا فى عباة «يا أخت هارون» أية مشكلة. لأنهم فهموا أن المقصود منها هو «أيتها المنحدرة من سلالة هارون» فقد اعتادوا - على غرار كل العرب - على عبارات «يا أخ...»، التى يفهم منها «أيها المنحدر من...»، ولم يخطر ببالهم - كما حدث لدى العلماء

المستشرقين(١) - أن محمد يجهل الفرق الزمني الشاسع بين هارون ومريم أم عيسى، وهذا ما لم يكن يخفى على أحد فى المدينة آنذاك التى كان يعيش فيها عدد كبير من اليهود.

من جهتنا يمكننا أن نضيف مثالين استشهد بهما الطبرى لشرح عبارة «يا أخت هارون»:

١ - نقرأ فى القرآن فى السورة ١١، الآية ٥٠: ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ وقد ترجم بلاشير فى تفسيره للقرآن كلمة «أخاهم» بالكلمة الفرنسية (11, p.441) leur Contribule. ويبين هذا المثل أن كلمة أخ أو أخت يمكن استعمالها بمعنى «أحداً من القبيلة» أو «واحد منهم».

٢ - فى خطبة شهيرة لعلى بن أبى طالب سجلت فى نهج البلاغة نجده يستشهد ببيت شعرى نسبه قائلاً: «كما قال أخو هوازن» أى دريد بن سيمّه الذى ينتمى إلى قبيلة هوازن.

٣ - كثيراً مايقال عن الحجاج الثقفى أنه أخو ثقيف نسبة لانتمائه لهذه القبيلة.

٤ - من المعتاد حتى يومنا هذا استعمال عبارة يا أخا العرب فى الجرائد والصحف بمعنى أيها المنتمى للأمة العربية.

توجد آلاف الأمثلة من هذا النوع فى الكتب العربية التى كتبت فى مختلف العصور. ولهذا أكدنا فى بداية هذا الفصل أن تفسير عبارة «يا أخت هارون» أمر سهل للغاية لأنها تعنى ببساطة «المنحدرة من سلالة هارون». فهذا تفسير لغوى بديهى لكل من يجيد العربية ويعرف تلوناتها المتعددة.

لكن يمكن مع هذا أن يعترض أحد قائلاً لماذا جاءت تسمية مريم فى هذا الموضع من القرآن بأخت هارون؟ والجواب هو أن مريم عوتبت من قومها لأنها في نظرهم اقترفت إثماً كبيراً وحملت دون زواج. ويزداد وقع العتاب شدة وهى منحدرة من آل هارون. فاستعمال كلمة هارون هنا جاء لتذكير مريم بفظاعة خطيئتها.

---

(١) اقربهم إلينا تاريخاً هو موريس جودفراو ديمومبين Mourice Gaudefroy Demombynes فى كتابه «محمد» Mahomet ص ٣٨٤ Paris 1957 مع أنه تراجع قليلاً عن ادعائه قائلاً: «هذا يعنى أن النبى يكون قد فكر بأن التوراة والإنجيل نزلا فى فترة واحدة».

العبارة في غاية الجمال الخطابي وتتناسب تماماً مع البلاغة القرآنية التي أضيفت عليه إعجازه.

لهذا السبب نقول أن عبارة «أخت هارون» لم تثر في وقت النبي محمد أي مشكلة سواء لدى المسيحيين أو لدى اليهود وفهمها المسلمون طبعاً على انها «أيتها المنحدرة من سلالة هارون».

المدهش في الأمر هو الطبري وفخر الدين الرازي لم يتبينا هذا التفسير، حيث ظل رأي الأول غير واضح بينما انضم الثاني للرأي القائل بأن مريم كان لها فعلاً أخ اعتبر من أتقياء بني إسرائيل. ولهذا استعمل قوم مريم اسمه ليكون وقع العتاب أشد على مريم، لأن من له أخ كهذا وأهل كهؤلاء لابد وأنه يشعر بعظمة خطيئته[1].

الرأي الغريب للقريظي:

أغرب رأي لدى المفسرين المسلمين هو ذلك الذي تبناه محمد بن كعب القريظي المنحدر من قبيلة بني قريظة، وهي قبيلة يهودية من المدينة طردها وشردها محمد. ويدعي محمد بن كعب القريظي، أن مريم هي أخت هارون شقيقته من أمه وأبيه، وهي أخت موسى أخا هارون الذي مشى على درب موسى. ويرد ابن كثير بشدة على هذا الرأي (الجزء الثالث، ص ١١٩): «هذا الرأي خاطيء تماماً. لأن الله قال في كتابه القرآن أنه بعث عيسى بعد الرسل ولم يأت بعده سوى محمد...

وقد جرت العادة عندهم أن يسموا بأسماء رسلهم والصالحين منهم» ص ٢٠٥/٢٠٦، النص في كتاب ابن كثير جزء ٣ ص ١١٩.

هذا النص لابن كثير مهم جداً لأنه يكشف لنا مصدر الخلط بين مريم أخت موسى وهارون ومريم العذراء أم عيسى. وقد جاء بقصة مريم الأولى من (سفر) الخروج الأصحاح ١٥، ٢٠ - ٢١ حيث نقرأ «فأخذت مريم النبيّة أخت هارون الدفّ بيدها. وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم. رنّموا للرب فإنه قد تعظّم. الفرس وراكبه طرحهما في البحر».

---

(١) فخر الدين الرازي: تفسير، سورة ١٩، آية ٢٩، جزء ٤، ص ٣٧١. مطبعة بولاق، القاهرة ١٨٦٢.

لكننا نتساءل: لو كان القريظى على دراية جيدة بالإنجيل كيف يخطىء بهذه الطريقة ويخلط بين مريم أخت هارون وموسى ومريم العذراء أم عيسى؟ هذا أمر غريب فعلاً!

ولنا أن نتساءل أيضاً: أليس القريظى هو مصدر الفرضية الثانية التى استعرضها ريلاند Reland، وكذلك مصدر الاتهام الذى رفع لواءه بعض المستشرقين حول خلط القرآن بين المريم الأولى والثانية. ولم يذكر رأى القريظى فى كتب الطبرى وفخر الدين الرازى. إذ لم نجد له أثراً سوى لدى ابن كثير (١٣٠١/٧٠١ - ١٣٧٣/٧٧٤) الذى لم يذكر أى شىء عن مسألة المعجزة التى تفسر الخلط أو المزج بين المريم الأولى والثانية. وهى المعجزة التى تكون بفضلها استطاعت مريم أخت هارون أن تحفظ إلى وقت ميلاد عيسى.

أما ريلاند الذى تحدث عن هذه المعجزة فقد أخذها عن جادنيولو Guadagnolo فى كتابه «الدفاع عن الديانة المسيحية» Apologia fro religione Christiana, Contra Ahmedem Abu Zin Persam. p 279. Fillippo Guadagnolo (Magliano, Abruzzi, 1596 environ - Rome 1656).

لقد كان هذا الأخير مستشرقاً إيطالياً وقسيساً ينتمى إلى رهبانية كلريكوس مينور Dei chiérici regulari minori وكان أستاذاً للغة العربية فى جامعة روما وقام بتأليف كتاب عن القواعد العربية صدر عام ١٦١٢ Breves instutianes arabicae linguae وقاموس عربى Thesaurus seu Dictionarium arabicium لكنه كتب كذلك كتب تدافع عن الديانة المسيحية apologiaa fro christiana religione, 1631 وConsideragzioni contra la religione Naomettana, 1649. كما شارك فى ترجمة الإنجيل إلى العربية (Biblia arabica, 1671).

الكتاب الذى يهمنا هنا هو «الدفاع عن الديانة المسيحية» Apologia fro christiana religione الذى كتبه ليرد على المسمى أحمد بن زين العابدين الفارسى الأصفهانى مؤلف كتاب بالفارسية بعنوان «صاقل المرآة» وهو بدوره رداً على كتاب عنوانه «مرآة مرئية الحق».

صدر كتاب جادنيولو فى روما عام ١٦٣١ ثم ترجمه إلى العربية بعد ذلك بست

سنوات تحت عنوان «إجابة القسيس الحقير فيليبس كورانولوس الراهب، من رهبانية يقال لها بلغاة الفرنجى كلريكوس مينور، إلى أحمد الشريف بن زين العابدين الفارسى الأصفهانى».

أما عنوانه اللاتينى فهو: R.P. Philippi Guadagnoli (lericorum reg. Minorium Pro Christiana Religione Responsio ad objectiones Ahmed Filii Zin Alabedin, Persa Asphahanensis)

بعدما عرض اتهام الخلط بين مريم الأولى والثانية نجده يعرض رد المسلمين عليه كالآتى:

"Scio responsionem, quam aliqui Mahometanorum assignare conantur: nempè, illam eamdem Mariam fuisse miraculosè à Deo usque ad illa tempora servatam, ut Christum conciperet. Verum responsio nulla est; quia in sacra scriptura, cap. 20. Num. Allegato, habetur, illam obiisse; et convenunt in hoc Codices, tam qui sunt apud Christianos, quam qui extant apud ludaeos. Ergo, nullo modo potest dici contra scripturas, illam fuisse miraculosé servatam usque ad illa tempora". (p. 279).

جاءت هذه الفقرة فى الصفحة ٥٣٤ من الطبعة العربية.

لم يشر جادنيولى مثلما هو ظاهر إلى المصدر الذى وجد فيه رد المسلمين بهذه الصورة على من يتهمونهم بخلط الأزمنة بين مريم أخت هارون ومريم أم عيسى. وعلى مايبدو وكما يعترف به شخصياً لم يجد هذا الرد عند خصمه أحمد بن زيد العابدين الأصفهانى. فهل تراه وجده لدى مصدر عربى أو فارسى ما؟ لايمكننا الجزم بأى شىء فى هذا الشأن لأنه لم يعط لنا أية معلومات عن المصدر الذى اعتمد عليه. هل يكون قد أطلع على تفسير ابن كثير الذى عرض لرأى القريظى؟ وإن كان هذا صحيحاً من أين جاء جادنيولى إذن بمسألة المعجزة التى حفظت مريم أخت هارون وموسى إلى وقت ميلاد عيسى، بينما لم يكن لها أثر فى كتاب ابن كثير؟ هل تكون هذه المسألة مجرد استنتاج من كلام القريظى؟ لكن من الذى توصل إلى هذا الاستنتاج؟

ومما لاشك فيه أن هذه المعجزة لم ترد على لسان مفسر مسلم بما أن جادنيولى لم ينسبها للمسلمين. يبقى احتمال آخر. وهو أن جادنيولى أو أحد المجادلين المسيحيين هو الذى اختلق هذه القصة. هذا الاحتمال وارد خاصة لو تأملنا فى الفكر الذى حمله كتابه سالف الذكر. فهو لم يستند فيه كثيراً على مصادر إسلامية. ونجده يستشهد فى هذا المضمار (ص ٢٩٧ من الطبعة اللاتينية تقابلها ص ٥٥٧ من الطبعة العربية) بكتابين مزيّفين بعنوان: كتاب هاجر وكتاب تاريخ الإمام. كما نسب للنبى محمد كتاباً بعنوان كتاب الأنوار (ص ٥٦٠ الطبعة العربية و٣٠٣ الطبعة اللاتينية). بل والأدهى من ذلك نجده يدعى أن محمد قد ألّف كتاباً يحتوى على ١٢ ألف حديث وأنه عندما سئل من طرف المسلمين حول صحة هذه الأحاديث قال أن ٣٠٠٠ منها فقط صحيحة (ص ٥٣٨ الطبعة العربية = ٢٨١ اللاتينية).

هكذا اكتنفه الالتباس وظن أن كتب السيرة والسنة ألّفت من طرف محمد وأنها وجدت منذ عهده. كيف كان جادنيولى هذا وهو أستاذ اللغة العربية فى جامعة روما بهذا الجهل وبهذه الدرجة من سوء النية. فكتاب الدفاع عن الديانة المسيحية Apologia Christiana Religione ملىء بالمغالطات لدرجة لايمكن الاستفادة من معلوماته بشىء.

ابن كثير وحجته المبنية على فقه اللغة والتاريخ:

لنبحث قليلاً فى شخصية القريظى صاحب الرأى القائل أن مريم أخت هارون وموسى هى نفسها مريم أم عيسى. اسمه أبو حمزة محمد بن كعب القريظى. ويعطى لنا السمعانى تفصيلاً أكبر عن شجرة عائلته، فهو: محمد بن كعب بن سليم بن عمر بن لاس ابن جان بن عمران بن عمير بن قريظة بن الحارث. وأصله من المدينة. وكان من أبرع رجالها فى علوم الحديث والفقه. ويعتمد على رواة مثل ابن عباس، وابن عمرو وزيد بن الأرقم.. وتوفى فى المدينة فى عام ١٠٨ أو ١١٧ هجرى[1]. لم نجد معلومات أخرى عنه. لمعرفة اتجاهه الفكرى وآراءه بشكل أوضح يجب الإطلاع على الأقوال المنسوبة إليه فى تفاسير القرآن. عندها سيتبين مدى تأثره وتأثر تفسيره للقرآن بما يطلق عليه الإسرائيليات ومعرفة ما إذا كان استقى آرائه من الأنجيل والتلمود.

---

(١) انظر السمعانى: الأنساب، s.v., imp. en fac - sini là par D.S. Margoliouth, Leiden. 1912.

ولقد هاجم ابن كثير رأى القريظى حول الخلط بين مريم أخت موسى وهارون ومريم أم عيسى. لأنها تؤدى إلى خلط زمنى يصبح بموجبه داود وسليمان أنبياء بعد عيسى. وهذا مايتنافى مع القرآن طبعاً. إذ جاء فى القرآن أن داود وسليمان جاءا بعد موسى وهذا ماتنص عليه - كما يقول ابن كثير - الآية ٢٤٦ - ٢٥١ من سورة البقرة: ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله...﴾ إلى غاية ﴿وقتل داود جالوت...﴾ (ترجمة بلاشير).

وقد استشهد المستشرق جورج سال George Sale بدوره بحجة ابن كثير المؤسسة على القرآن عندما علّق[1] على سورة آل عمران قائلاً: «عِمران أو عُمران هو اسم شخصين مختلفين وفقاً للديانة المحمدية. الأول هو أبو موسى وهارون والثانى هو أبو مريم العذراء (انظر الزمخشرى، البيضاوى). لكن بعض الكتاب المسيحيين أطلقوا عليه اسم يوياكيم Joachim. وافترض المفسرون أن الأول أو بالأحرى كلاهما هو المقصود فى هذا المكان. على أية حال فإن الشخص المقصود فى الفقرة الثانية متفق على أنه عمران الثانى الذى إلى جانب مريم العذراء كان له ابناً اسمه هارون. (انظر القرآن، سورة ١٩) وبنت أخرى تدعى اشياع (إليصابات) التى تزوجت زكريا وهى أم يحيى. لذلك يقال عن هذا النبى وعن عيسى فى الديانة المحمدية أنهما أولاد الخالة.

ومن ناحية التعريف بالأسماء نشأ لدى الكتاب المسيحيين عموماً فكر يرى أن القرآن يخلط بين مريم أم عيسى ومريم أخت هارون وموسى ويخلط بالتالى خلطاً غير معقول بين الأزمنة. ولو كان ذلك حقيقياً فهو كان لتحطيم صفة الألوهية المزعومة لهذا الكتاب[2]. لكن ولو افترضنا مثلاً بأن محمد على درجة من الجهل بالتاريخ القديم والترتيب الزمنى تجعله يقع فى هذا الخطأ الكبير فإننى لا أستطيع أن أرى حتى الآن كيف يمكن استنتاج ذلك الخطأ من القرآن. فكون شخصين يحملان نفس الاسم لا يتبعه بالضرورة أن يكونا

---

(1) the Koran, Commonly called the Alcoran of Mohammed, translated into Englis immedately form the original arabic with explanarory noted, taken from the most approved commentators, to witch is prefixed a frelimenary discouse by George Sale, p 39 (de la traduction) n. b. London, 1734.

(2) N:V. Reland, de tel. Moh. p 211. Marracc, in Alc. p 115. ect. Prideaux: Letter to the Deits, p 185.

شخصاً واحداً. هذا الخطأ يتعارض مع الآيات القرآنية الأخرى يظهر منها أن محمد كان يعلم أن موسى قد سبق عيسى بعدة عصور. وبناءً على ذلك فإن المفسرين لم يخفقوا فى إخبارنا بأنه قد مضى حوالى ١٢٠٠ سنة بين عمران أبو موسى وعمران أبو مريم العذراء. أما المستشرقين قد جعلوا من هذين العمرانين ابنين لشخصين مختلفين. الأول على حد قولهم كان ابن يشار Yeshar، لزهار Izhar (الذى كان فى الحقيقة أخاه[1]) ابن كهات Kahath ابن ليفى Levi. أما الثانى فكان هو الآخر ابن مثان[2] وفقاً لشجرة العائلة التى تتبعوها حتى دفيد ومنه آدم[3].

لكن بأسلوب خاطىء وسىء النية. ربما يلاحظ أن العذراء سميت أخت هارون فى القرآن[4] وليست أخت موسى التى تكون قد حفظت بمعجزة منذ عهد موسى حتى عيسى لتكون أمه»[5].

هذه الملاحظة الصائبة فى مجملها، الموجزة والغنية بالمعلومات أكثر موضوعية وأشد دقة علمية بكثير من كل ما قرأناه أعلاه تحت أقلام مستشرقين مثل جريم، وهوروفيتز وفينسنك، وجود فروا ديمومبين وباريت وغيرهم كثيرون من المستعربين الذين توالوا بعدهم بقرنين.

وقد اعتمد سال على أعمال ريلاند واستفاد منه، لكن رأيه كان أكثر تطوراً من هذا الأخير حيث دافع عن رأيه باللجوء إلى حج مؤسسة على فقه اللغة وعلى العقلانية. كما استغل المستشرق آراء المفسرين المسلمين أمثال الزمخشرى (الكشاف) البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

---

(١) الخروج، أصحاح ٧، ١٨.
(٢) الزمخشرى. البيضاوى.
(٣) انظر Reland. De rel. Moh. p 211. D'Herbelot. Prib. Orient.
(٤) سورة ١٩.
(5) Guadagnoli Apology pro rel. chri. contra Ahmad Ebn Zeid al Abedin. p 279.

الخاتمـــة

بعد هذا الحديث المستفيض نصل إلى الخلاصة:

١ ـ إن العبارة القرآنية ﴿يا أخت هارون﴾ من السورة ١٩ الآية ٢٩ تعنى ببساطة: «أيتها المتحدرة من سلالة هارون». إن وقع الاتهام بالزنا الذى وجهه اليهود إلى مريم لابد أن يكون أشد ألماً نظراً لأنها تنحدر من سلالة أنبياء، ويؤكد كتاب لوقا على هذه القرابة مع سلالة الأنبياء حيث جاء فيه أن مريم هى قريبة اشياع أو إليصابات (كما جاء فى الأنجيل) وهى والدة يحيى النبى.

٢ ـ لقد فهم يهود ومسيحيو المدينة والجزيرة العربية العبارة بهذه الصورة. فمن الناحية اللغوية كان ولا يزال استخدام كلمة: «أخ» أو «أخت» أو «يا أخا» و«يا أخت» متبوعة باسم القبيلة والقوم والنسب يحمل معنى: المنحدر من القبيلة القوم أو النسب. وقد لاحظ الطبرى والعديد من مفسرى القرآن هذا الأمر وأعطوا له الكثير من الأمثلة. لقد أعطينا كذلك العديد من الأمثلة المستقاة من القرآن ومن أقوال كتاب كبار.

٣ ـ لهذا نعتقد أن عبارة ﴿يا أخت هارون﴾ لم تثر فى عهد محمد أية مشكلة. أما عن رواية مسلم والنسائى والترمذى ـ بتحفظ ـ عن الطبرى حول الجدل الذى دار بين المغيرة بن شعبة مبعوث النبى إلى نجران وبين أهل هذه المدينة فهى فى نظرنا رواية مختلقة للتصدى لاعتراض جابهه الرسول بنفسه.

كما نستبعد من جهة أخرى الحل الذى يقترحه الطبرى وتبناه فخر الدين الرازى والذى مفاده أن مريم أم عيسى كان له فعلاً أخ اسمه هارون. لأن هذا الحل لايستند على أية معطيات تاريخية.

٤ ـ يمكن أن نتساءل: من كان وراء اتهام القرآن بالخلط بين مريم أم عيسى ومريم أخت موسى وهارون وبالتالى بالخلط بين الأزمنة؟ أول كاتب مسيحى تفوه بهذا الاتهام هو يوحنا الدمشقى (المتوفى عام ٧٤٩) وإن لم يكن هو صاحب الاتهام فإننا يمكن أن ننسبه لمسيحيى سوريا خلال القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى). حيث أخذه عنهم يوحنا الدمشقى وسجله فى كتابه Haeresibus.

٥ ـ ومن هنا أصبح هذا الاتهام أكثر الاتهامات تداولاً للهجوم على القرآن والنبى منذ القرن الثامن إلى يومنا هذا. تداوله رجال الدين وكذلك بعض «العلماء» واستخدموه فى مجادلاتهم ضد الإسلام وفى دراساتهم وملاحظاتهم «العلمية».

٦ ـ ولمواجهة هذا الهجوم صقل حديث المغيرة بن شعبة ولقن من طرف بعض المؤرخين.

٧ ـ أما ابن كثير فقد قدم حجة عقلانية تعتمد على النقد التاريخى تتلخص فى استحالة وقوع القرآن فى التباس وخلط زمنى لأن يظهر من خلال آيات أخرى أن فى القرآن إدراك عميق بالمسافة الزمنية التى تفرق بين هارون ومريم أم عيسى.

واستشهد بهذه الحجة جورج سال George فى ملاحظة على الآية المعنية فى ترجمته الإنجليزية للقرآن الصادرة عام ١٧٣٤. إذ يؤكد أنه من المستحيل أن يكون القرآن قد وقع فى هذا الالتباس الزمنى لأنه كما يقول: "in consitent with a number of other places in the Korn, where by it manifesthy appears tht Mohammed well knew and asserted that Noses preceded Jesus several ages".

٨ ـ لهذا يبدو انسياق جريم وهوروفيتز وفنسنك وبلاشير وجود فروا ديمومبين وباريت (حتى لو كان الأربعة الأخيرين قد ضمنوا الاتهام فى جملة شرطية) أمراً غريباً، لأنهم لم يؤسسوا اتهامهم على أية حجج. كما أنهم لم يعبئوا بمناقشة الحلول المقترحة من طرف المفسرين المسلمين والتى تبناها كتاب أوروبيون مسيحيون آخرون مثل ريلاند وجورج سال.

يمكن أن نفهم مثل هذا الموقف من قساوسة ورجلا دين ومبشرين مثل يوحنا الدمشقى ونيكولا دى كوزى Nicholas de Cuse وجودنيولو Guodagnolo وغيرهم. لكننا لا نفهمه عندما يتعلق الأمر بعلماء يفترض فيهم الموضوعية وعدم الانحياز.

الفصل الثالث عشر

مشــكلة هــامــان

لقد أثارت مسألة هامان جدلاً كبيراً فى أوساط منتقدى القرآن؛ الذى ذكر هذا الاسم ست مرات على أنه أحد معاونى أو وزراء فرعون. وهذه هى الآيات التى ذكرته:

١ - **﴿ونمكّن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون﴾** (القصص: الآية ٦).

٢ - **﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾** (القصص: الآية ٨).

٣ - **﴿وقال فرعون.... فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلّى أطّلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين﴾** (القصص: الآية ٣٨).

٤ - **﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيانات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين﴾** (سورة العنكبوت: الآية ٣٩).

٥ - **﴿ولقد أرسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾** (سورة غافر: الآية ٢٣ - ٢٤).

٦ - **﴿وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلّى ابلغ الأسباب. أسباب السموات فاطّلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً﴾** (غافر: الآية ٣٦ - ٣٧).

يبدو بديهياً من هذه الآيات أن هامان هو على الغالب وزير فرعون. ولهذا السبب أكد كل مفسرى القرآن أن هامان كان وزير فرعون الذى حكم فى عهد موسى. والمشكلة الوحيدة التى أثاروها بشأنه انصبت حول ما إذا كان هامان قد بنى فعلاً برج بابل.

البعض يقول إنه بناه فعلاً وسخّر لذلك خمسين الف عامل عكفوا على بنائه. وعندما شيّده صعد فرعون إلى أعلاه وأطلق سهماً ناحية السماء فرجع له ملطخاً بالدم. عندها قال فرعون: لقد قتلت إله موسى.

جانب آخر من المفسرين الأكثر استنارة لم يعتمد هذا التفسير وقالوا إن فرعون لم يشيّد هذا البرج حيث - كما يقول الفخر الرازى - لايمكن لشخص عاقل الظن بأنه سيقترب من السماء لو صعد على برج مهما كان علوه. وحتى لو صعد على أعلى جبل فإن السماء تظل بعيدة عن متناوله كما لو كان على سطح الأرض المسطحة. وأى رجل عاقل يعرف جيداً أنه لايمكنه إصابة السماء بسهمه. وبالتالى لايمكن تفسير هذه المسألة بصورة لايقبلها العقل. لهذا قال الرازى إن التفسير المرجح هو أن فرعون قد أوهم ببناء البرج لكنه لم يفعل ذلك فى الحقيقة. أو أنه قال جملة **﴿فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلّى أطّلع إلى إله موسى﴾** ساخراً وليثبت أنه لايمكن إثبات وجود إله موسى إلا بالصعود إلى السماء والتأكد من ذلك. ومهما كان علو البرج فإن ذلك يبقى مستحيلاً. وقد اعتقد الرازى[1] بهذا التفسير الذكى أنه وضع حداً لما جاء على لسان فرعون من سخافة.

لكن المفسرين المسلمين لم يثيروا أى جدل بشأن شخصية هامان. ويدل هذا على أن المسألة لم تثر من أساسها من طرف المسيحيين واليهود الناقدين للقرآن وإلا لكان رد عليهم المسلمون. فعلاً لم تثر شخصية هامان أية مشكلة ابتداءً من يوحنا الدمشقى إلى عصر النهضة[2] إذ لم تظهر إلا فى عهد الجدل المسيحى المعاصر.

وحتى لانعود إلى الوراء كثيراً بخصوص هذا الجدل سنكتفى بما جاء على لسان تيودور نولدكه Théodore Nöldeke المستشرق الألمانى المشهور. حيث يقول فى مقال نشر أولاً حوالى عام ١٨٨٧ فى دائرة المعارف ا لبريطانية، الطبعة التاسعة[3] فى Encyclopaedia Britanica, 9eme éd. tome XVI, p 597. «أكثر اليهود جهلاً لايمكن أن يعتبروا هامان (وزير أحشويروش) هو نفسه هامان وزير فرعون» (Sketches.. p 30).

ونقف قليلاً عند ما يؤكده نولدكه لنسجل بعض الملاحظات:

١ - بأى حق يدعى أن شخصية هامان فى القرآن هى نفس شخصية هامان التى جاء

(١) فخر الدين الرازى: تفسير القرآن، القاهرة. جزء ٢٤، ص ٢٥٣، وتوجد مسودة من الحل الذى توصل إليه فى تنزيه القرآن لعبد الجبار، ص ٣١٠.

(٢) انظر (Adel - Théodore Khoury, Les Nheologiens bysantins et l'Islam. Louvain 1969).

(٣) أعاد نشر المقال فى كتابه The Sketches from Eastern History, 1892, pp. 21 - 58.

ذكرها في سفر أستير (الأصحاح ١٣ : ١ ـ ١٥، ٧) من العهد القديم على أنها شخصية مقربة من ملك الفرس أحشويروش وكان متزوجاً من أستير؟ فلم يذكر أبداً في الإنجيل أو في الأساطير أو الكتابات الدينية اليهودية أن هامان هذا قد شيّد برجاً. أما برج بابل الذى جاء ذكره فى سفر التكوين: الإصحاح ١١، ١ ـ ٩. فمن المفروض أنه شيّد من طرف المنحدرين من نوح بعد الطوفان بقليل. ومن ناحية أخرى كان الملك أحشويروش يحكم من عاصمته شوشن التى توجد فى بلاد الفرس ولا تمت بصلة إلى بابل. أما هامان فقد كان «ابن همداثا الأجاجى» (أستير ٤، ١) وهى بلاد مجهولة.

بالتالى فإن الإنجيل الذى يدعى البعض أنه مصدر القرآن، لم يربط هامان ببابل ولا ببرج بابل. فمن أين جاء الخلط، إن وجد، بين هامان المقرب من الملك احشويروش وهامان الذى ذكر فى القرآن؟!

لكن نولدكه لم يشغل باله بإثبات إدعائه الجائر. وهذا مدهش بالنسبة لشخص يعتبر من أعمدة الاستشراق!

٢ ـ وإذا كان، كما يقول، أجهل جاهلى اليهود لايمكنه الخلط بين هامان وزير أحَشْويروش وهامان وزير فرعون فإن هذا يعنى أن محمد قد واجه انتقادات اليهود فى عصره وأن ذلك سجل فى القرآن كما هو حال كل المجادلات. لكن هذا لم يحدث. ولهذا نقول أن إدعاء نولدكه خاطىء وسخيف.

أما موريس جودفروا ـ ديمومبين Maurice Gaudefroy - Demombynes فيقترح علينا افتراضاً لايقل سخفاً من الافتراض السابق. بعد أن استعرض باختصار الآيات المذكورة سابقاً يقول: «إنها ذكرى إنجيلية يشوبها الالتباس. لقد عرف عن هامان عدائه لليهود. وقد ضُم فى القرآن إلى هارون وقارون أغنى رجل على الأرض ليشكلوا مجتمعين ثلاثياً لم يكن غريباً على الشعر العربى القديم»[1]. هذه الأسطر ليست واضحة لأنها تخلط بين الشخصيات الثلاثة دون أن توضح الإلتباس الذى يشير إليه صاحبها الذى يبدو أكثر غموضاً من نولدكه. ومن جهة أخرى ما علاقة كون هامان معادياً لليهود باعتباره وزيراً

---

(1) Maurice Gaudefroy - Demombynes, Mahomet, Paris, p 360

لفرعون فى القرآن. فقد كان لليهود أعداء أشد ضراوة ذكروا فى الإنجيل ولم يذكرهم القرآن ولم يجمع بينهم وبين فرعون.

فأقوال جود فروا ديمومبين أكثر غباءً وتكشف عن تشوش أفكاره.

بعد استعراضنا لإدعاءات هذين المستشرقين سنرى ماهى حقيقة هامان.

نعتقد أن اسم هامان الذى جاء فى الآيات الست السابق ذكرها ليس اسم شخص لكنه لقب أعطى لكبير كهنة فرعون. إذ نعرف من خلال المعلومات التاريخية عن مصر القديمة أن كبير كهنة آمون قد حاز منذ الأسرة التاسعة عشر مكانة كبيرة لدى فرعون، لدرجة أنه استولى على إقليم أعالى النيل وأصبح قائد كل الجيوش وكبير خزانة الإمبراطورية والمشرف الأعلى على معابد الآلهة[1]. ولقد كان وزير فرعون يراقب فعلاً «كل أعمال البناء العمومية والمالية»[2]، وكان المشرف الأعلى على كل أعمال الملك. (نفس المرجع). وبالتالى كان كبير كهنة آمون يشغل منصب وزير فرعون.

وفرضيتنا هى أن: اسم هامان فى القرآن يشبه أو يماثل اسم آمون. ويسهل التقريب بين الاسمين عندما نعرف أن آمون ينطق كذلك أمانا (انظر Encyclopeadia Britanica, 1, p 321, col. 1; coll. 1; éd 1982)، ويقصد منه بالاختصار «كبير كهنة.....»، ومثلما كان اسم فرعون يدل على الملك أصبح اسم هامان يدل فى اللغة الشفوية المتداولة على وزير فرعون.

ويمكن بالاستناد على فرضيتنا تفسير أن وزير فرعون الذى عاصر موسى كان اسمه هامان. لاتوجد مشكلة تذكر بشأن هذا الاسم. وأى اعتراض أو انتقاد مثار بهذا الخصوص يعد خاطئاً يحركه سوء النية. وهو سوء النية بالذات الذى جعل نولدكه يكتب ما كتبه في كتابه (Sketches...). حيث جاء فى فقرة منه (ص ٣٠ ـ ٣١) حول هامان ومريم «بالإضافة إلى هذا التصور غير المعقول يوجد تحويرات مزاجية شتى بعضها يدعو للسخرية وينسب إلى محمد نفسه. والمثال على جهله لكل الأمور خارج الجزيرة هو جعل الخصوبة فى مصر ـ التى تشح فيها الأمطار ـ مرهونة بالأمطار وليس بفيضان النيل».

---

(١) انظر A.H. Breasted, A History of Egypt, p 520.

(٢) Dumas, La civilisation de l'Egypte pharaonique, Paris, 1965, p 158.

هذا الانتقاد فى غاية الغباء وينم عن جهل نولدكه - المستشرق المشهور - للغة العربية والشئون المصرية.

١ - لقد جاء فى الآية (٤٩ سورة ١٢) التى يستشهد بها مايلى ﴿ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ والمعنى كلمة يغاث هو «ينجى»[١]. لكن نولدكه وقع فى الغلط بسبب اعتماده على بعض المترجمين الأوروبيين للقرآن الذين توسعوا بدورهم فى تفسير هذه الكلمة بدلاً من ترجمتها ترجمة دقيقة.

وهذا يعود إلى مسايرتهم لبعض المفسرين أمثال السيوطى الذين استفاضوا فى التأويل لتسهيل فهم النص.

ولكن نولدكه على غرار أولئك المترجمين للقرآن لم يحسنوا قراءة هؤلاء المفسرين وتعجلوا فى فهم ماكتبوه.

أما سال Sale فهو يترجم الآية المذكورة أعلاه كالآتى:

"Then shall there come, after this a year wherein men shall have plenty of rain, and wherein they shall press wine and oil".

ونجده فى ملاحظة سجلها فى أسفل الصفحة يقول: «علينا أن نفند ماكتبه بعض المؤلفين القدامى. فلقد كانت تمطر عادة فى الشتاء خاصة فى الوجه البحرى وقد لوحظ الثلج فى الإسكندرية على نقيض مايزعمه Seneca صراحة.

فعلاً تصبح الأمطار أكثر ندرة فى الوجه القبلى فى اتجاه شلالات النيل. وعلى أية حال فإننا نفترض أن الأمطار التى ذكرت هنا قصد بها تلك التى تسقط فى إثيوبيا وتسبب ارتفاع منسوب النيل»[٢].

فالمصريون الذين يعيشون فى الصعيد، فى الدلتا، يعلمون جيداً أن الأمطار تتساقط

---

(١) انظر تفسير الرازى، الجزء ١٨، ص ١٥٠ - ١٥١؛ وأبو حيان، الجزء ٥، ص ٣١٤.

(٢) The Koran, translated into Englisch from the original Arabic by George Sale. هذه الترجمة صدرت عام ١٧٣٤.

بغزارة خلال فصل الشتاء أى خلال أربعة أشهر (من ديسمبر إلى مارس). وأن زراعة القمح، والبرسيم والشعير والفول إلخ.. تعتمد أساساً على الأمطار التى تتساقط خلال هذه الفترة.

أعلم أن نولدكه، المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية، لم تطأ قدمه البلدان الإسلامية ولم يغادر أوروبا طوال عمره (١٨٣٦ ـ ١٩٣١)! لكن ألم يطلع رغم هذا على ترجمة القرآن التى أنجزها «سال» المنتشرة خلال القرن الثامن عشر؟ هذا لايعقل.

إن خطأ نولدكه مزدوجاً: فهو لم يفهم النص العربى للسورة ١٢ الآية ٤٩، ثم أنه يؤكد أن المطر يكاد ينعدم فى مصر وأ هلها لم يشعروا أبداً باحتياجهم له، وهو الخطأ الذى لايقع فيه أحد من صبية مصر[1].

---

(١) معدل الأمطار التى تسقط فى الإسكندرية وشمال الدلتا يقدر بـ ٢٠٦ مم، وفى القاهرة ٣٣ مم. انظر: .L.S. Suggate, Africa, London, Harap, 1974

الفهرس

الفهـــــرس



■ يسجل التاريخ أن أوسع جملة شنت على القرآن والإسلام وأثارها المستشرق چان كنتاكوزين إمبراطور بيزنطة. وبسقوط القسطنطينية على يد المسلمين الأتراك عام ١٤٥٣م توقف كل الجدل البيزنطي ضد الإسلام، وانتقل مركز ثقل الهجوم إلى أوروبا المسيحية التي رفعت اللواء.

ما من شك في أنه ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر حاول المستشرقون توخي الموضوعية والدقة في أطروحاتهم وكذلك الاهتمام الشديد بالتدقيق الموضوعي.

لكن الغريب في الأمر أن أدوات فهم اللغة الحديثة التي توفرت للمستشرقين منذ منتصف القرن الماضي - خاصة بفضل سهولة الوصول إلى المخطوطات - قد أعطت لبعضهم المزيد من الجسارة في اختلاق الفرضيات والنظريات الزائفة الوهمية ليستخلصوا منها ما يشاءون من نتائج تجانب الصواب.

لهذا السبب يأخذ هذا الكتاب الذي نحن بصدده على عاتقه فضح وكشف هذه الجراءة الجهولة. وليس في نيتنا، مع هذا، حل كل المعضلات القرآنية المثارة - بعضها يظل - وسيظل ربما دائما - موضع بحث ودراسة أعمق وأفضل تناولا من عدة زوايا.

المؤلف